حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٦ (عدد يناير – مارس ٢٠١٨)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

أسباب وعوامل قيام الانتفاضة الصربية عام ١٨٠٤

أنس إبراهيم خلف العبيدي *

كلية الآداب / جامعة بغداد

المستخلص

شكلت الانتفاضة الصربية الأولى عام ١٨٠٤ علامة بارزة من بداية التاريخ الحديث لشبه جزيرة البلقان، ومثلت أهمية لا تضاهى في تاريخ المسألة الشرقية، لما كان لها من دور كبير في إنشاء سلسلة من الدول القومية على أنقاض الإمبراطوريتين المحافظتين العثمانية والنمساوية، وعدت أول انتفاضة بلقانية في بداية عصر القومية الحديث. لقد تضافرت أسباب وعوامل وظروف عدة اختصت بهذه البقعة من البلقان بالذات كانت وراء اندلاع هذه الانتفاضة، ونظرا لتميز تلك الظروف والأسباب وانفراد الصرب بها من دون بقية شعوب البلقان ركزت الورقة البحثية هذه عليها. وتم تقسيمها إلى مباحث كل مبحث يحاول تسليط الضوء على سبب محدد أو ظرف معين كان له دور في بلورة الشعور القومي لدى الصرب ومثل خطوة إلى أمام في مسيرة كسر نير التسلط الأجنبي، حتى اندلاع الانتفاضة.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

أولا: أوضاع الصرب في ظل الحكم العثماني

عانت صربيا في مطلع القرن التاسع عشر من التأخر في مجمل نواحي الحياة، واشتغل معظم سكانها الصرب السلافيين في الفلاحة وتربية الماشية مع وجود قلة ممن يشتغلون بالحرف والتجارة، ولم تكن الأراضي التي يقطنها الصرب موحدة من الناحية الإدارية، ففي حين كانت نواتها الأساسية تؤلف باشوية قائمة بذاتها هي باشوية بلغراد، كانت أجزاؤها الأخرى موزعة على ثلاث باشويات أخرى هي البوسنة، وفيدين Vidin (حاليا في غرب بلغاريا)، وليسكوفاتس Leskovac (جنوب صربيا الحالية)[١].

بالكاد تغير النظام الاجتماعي في باشوية بلغراد خلال القرون الأربعة السابقة للانتفاضة. ففي خلال هذا الوقت، عاش المسيحيون والمسلمون حياة منفصلة، فلم يكونوا ليجتمعوا إلا في مناسبات تحصيل الضرائب والجزية من قبل الطبقات الحاكمة العثمانية. لقد كان الانقسام بين الطائفتين تاما، فالأعم الأغلب من صرب الباشوية تقريبا كانوا يعيشون في الريف، في حين أن حوالي ٢٠ ألف مسلم من الإداريين والجنود الأتراك، فضلا عن بعض التجار اليهود واليونانيين سكنوا المدن[٢].

وبصرف النظر عن الخصائص العرقية المختلفة لكل من السلاف الصرب المسيحيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى، الذين كان أغلبهم أتراكا، كان بالإمكان التمييز بينهم بسهولة عن طريق ملابسهم. إذ مُنع المسيحيون من ارتداء الملابس ذات الألوان الزاهية، وربما هذا يفسر جزئيا لماذا حتى يومنا هذا يفضل القرويين الصرب، وخاصة النساء، ارتداء الملابس السوداء الطويلة. وكان يطلق على غير المسلمين اسم الرعية، وهذا في عموم الإمبراطورية العثمانية. لقد كانت الوظيفة الأساس للعامة هي رفد الدولة العثمانية بأسباب العيش المادية، ففي الوقت الذي يخدم المسلمون الدولة بالسيف وعلوم الشريعة، تصون الرعية الدولة بالعمل وتأدية الضرائب[٣]. وعدت الرعية من الناحية المعنوية أقل مرتبة من المسلمين، أو هذا ما روج له بعض مؤرخي حقبة التحرر القومي بروايات ممزوجة بصبغة تمييزية دينية، حيث يذكر أنه لم يكن يسمح للمسيحيين حمل السلاح جهارا أو امتطاء صهوة جواد أو جمل، ولم يكن أمر سكناهم المدن مسألة سهلة أو من غير قيود، فكان عليهم إفساح المجال للتركي إذا صادفهم على الطريق، أما كنائسهم فلم يكن مسموحا لها قرع أجراسها في المدن، لذا اختار من أراد البقاء على عقيدته الانزواء في الريف[٤].

وهكذا، حتى نهاية القرن الثامن عشر، أضحت الحياة في باشوية بلغراد راكدة إلى حد ما، إذ اقتصر نشاط الإداريين الأتراك والتجار من اليونانيين واليهود وغيرهم على مراكز البلدات والمدن، في حين أبقي على شيء من الحرية للفلاحين الصرب الأميين في الريف[٥]، المهتمين فقط في أن يحيوا حياتهم دون تدخل خارجي يتطلب منهم تأدية ضرائب عالية تصادر من مقتنيات عوائلهم[٦].

ووفقا للرواية الصربية، فقد عانى الصرب أثناء الحكم العثماني من التمييز وانعدام الحرية السياسية والعزلة الاقتصادية والثقافية[٧]. غير أنه من الناحية العملية لم تكن حياة الفلاح الصربي في ظل الحكم العثماني مجحفة بصورة لا تطاق، إلى أن بدأت الحكومة المركزية تفقد السيطرة على أفراد الإنكشارية. فقبل القرن التاسع عشر كانت ملكية الأرض في باشوية بلغراد في أيدي عدد محدود من السيباهية الأتراك Sipahis، الذين منحوا إقطاعيات عسكرية واسعة عرفت باسم (التيمار Timar). وفي مقابل الخدمة العسكرية كان

السيباهي يستفيد من جزء من واردات إقطاعية التيمار. وعلى أديم هذه الملكيات الإقطاعية الكبيرة، تمتع الفلاحون بحق وراثي في الانتفاع بما تبقى من واردات الأرض في مقابل بعض العشور والخدمات. وبشكل عام تألفت التزامات الفلاحين تجاه السيباهي من حوالي عشر منتجاتهم، تفرض كل عام على كل أسرة وليس على كل فرد، فضلاً عن بعض أعمال السخرة للسيد الإقطاعي، وللأغراض العامة أيضاً[٨]. وفيما وراء ذلك، كان للفلاح الحرية في الاحتفاظ بالمحاصيل التي يزرعها والحيو انات التي يربيها. فضلاً عن أنه تمتع بحقوق وراثية، منها أنه لا يمكن طرده طالما كان يعمل في الأرض، وفي الوقت نفسه كان حراً في المغادرة، ولكن في هذه الحالة كان سيفقد الحق في الانتفاع من الأرض. وكان هذا الترتيب مرضٍ للفلاحين، فهو أفضل بكثير من الأنظمة التي كانت سائدة قبل الفتح العثماني، بل كان متقدماً نسبياً، حتى بالمقاييس الأوروبية الغربية في ذلك الوقت كنظام القنانة، إلى أن تأقلم التنظيم الاجتماعي للمجتمع الصربي مع الظروف الاقتصادية والقانونية السائدة[٩]، وكيف لا يتأقلم والأمر استمر لقرابة ٤٠٠ سنة منذ انكسار الصرب أمام العثمانيين في نهاية القرن الرابع عشر حتى العقد الأخير من القرن الثامن عشر.

ثانيا: الأوضاع الاجتماعية

في نهاية القرن الثامن عشر، لم يكن هناك نبالة صربية من طبقة عليا، أو حتى طبقة وسطى واضحة في باشوية بلغراد[١٠] ، وكان ذلك يعد جزءاً من إرث الحكم العثماني[١١]. إذ أن أفراد الطبقة الأرستقراطية الصربية، عندما غزا الأتراك المنطقة في القرن الرابع عشر، إما فروا إلى خارج منطقة النفوذ العثماني، أو لقوا حتفهم، أو تم إفقارهم إفقاراً شديداً وبالتالي فقدت تلك الطبقة هويتها[١٢]، حتى أصبح معظم سكان صربيا من فئة الفلاحين. ومن ناحية أخرى، قام الرجال البارزو ن محلياً بالتعاون مع السلطة العثمانية، إذ حاولوا توسيع قوتهم وثروتهم كوسطاء مع الإمبراطورية العثمانية[١٣] . فضلاً عن وجود بعض النبلاء من الذين انضووا تحت راية العثمانيين كجزء من شروط الصلح في البداية، ثم تحول بهم الأمر إلى اعتناقهم الإسلام[١٤]، فالنظام العثماني في الحكم أشترط أن يحكم باشا مسلم الإقليم، ليس هذا فحسب، بل يكون العثمانيون بمثابة القضاة وملاك الأرض. لقد منع هذا النظام بروز طبقة نبلاء جديدة غير مسلمة من سكان المنطقة الأصليين، لذلك اقتصر المجتمع الصربي المسيحي على فئة الفلاحين الذين تشاركوا زراعة الكفاف وتربية الماشية[١٥].

عاش الفلاحون الصرب في الريف في تجمعات عرفت باسم الـ (زادروجا) zadruga التي تكونت من أسر متداخلة في النسب. وكانت كل زادروجا تشكل جزءاً من القرية التي كان يحكمها مجلس من كبار القوم سناً برئاسة شيخ يدعى كنيز Knez ينتخب من بينهم[١٦] . وقد كوّن هذا النظام حكماً محلياً مستقلاً ذاتياً عن التدخل العثماني من الناحية العرفية، حيث أن ملاك الأراضي الأتراك أو السيباهية عادة ما يعيشون في المدن، ولا يأتون إلى القرية إلا للحصول على الضرائب التي يجمعها الكنيز نيابة عنهم[١٧]. وكان الكنيز يرأس مجلساً من أرباب أسر فلاحي القرية، وغالباً ما كانوا من عائلات ذات سمعة طيبة، يحظون باحترام كبير في القرية. وكانت زادروجا القرية تتجمع مع مثيلاتها من القرى ا لأخرى معاً في منظمة أكبر يحكمها شيخ أسمى يدعى اوبوركنيز Oborknez، يتم اختياره من بين مجموعة من الكنيز[١٨]. إن عملية انتخاب الكنيز كانت تجري من لدن مجلس الـ كنيزينا knezina الذي يضم مجموعة من أرباب الأسر، وكان هذا أشبه بمجلس بلدي يقوم إلى جانب انتخاب الكنيز، بمساعدته في أعماله[١٩]. إلا أن تلك التنظيمات بصورة

عامة لم تصل إلى حد الحكم الذاتي السياسي أو الاقتصادي، لكنها شجعت على تطوير نظام زراعي مستقر مقبول، استند على أساس حقوق السيباهي باعتباره صاحب الإقطاع العسكري[٢٠].

كان سير حياة الزادروجا في القرى أمر مقبول عموماً، ساده نظام أبوي رتيب، يذهب فيه الرجال إلى العمل، في حين تبقى النساء في المنازل، على الرغم من أن مساعدتهن كانت لازمة في الحقول في مواسم الحصاد. وكان مجتمع الزادروجا يتألف من عدة أسر تنحدر من سلف واحد قد يصل عدد أعضاءها إلى الأربعين عضواً، تتشارك منزلاً كبيراً واحداً يحتوي على غرفة مركزية تستخدم في العمل الجماعي وفي الترفيه في بعض الأحيان، تحيط بها غرف من جميع الجوانب. وكانت الروابط العائلية متأصلة في قلب المجتمع الصربي، حتى أن الفلاحين كرهوا تقسيم الزادروجا وإن أصبح هذا الكيان مزدحماً، مفضلين على ذلك توسيع مساكنهم، حتى أنه "لم يكن من غير المألوف أن يشكل منزلاً واحداً شارعاً بأكمله"[٢١]، وكان ذلك متأت على الأغلب من خشية ارتفاع قيمة الضرائب، لأنها كانت تفرض على الأسر وليس على الأفراد.

لخص مؤرخ صرب القرن التاسع عشر الألماني ليوبولد رانكه Ranke زيادة الدور المحوري للأسرة في بلورة الأواصر المشتركة ووحدة الهدف داخل المجتمع الصربي، بملاحظة كيف يمكن لهذه الأسر، "توريد جميع احتياجاتها، وتطمينها كل في حد ذاته – وهي حالة عامة استمرت تحت حكم الأتراك، لأن الضرائب تفرض أساساً على الأسر – الأمر الذي عمل على صهر المصلحة الفردية في تلك الأسرة، وبالتالي شكل أساساً استندت إليه القومية الصربية[٢٢].

وفي الوقت الذي سادت فيه ثارات الدم العائلية في مناطق الجبل الأسود وألبانيا واليونان والمناطق الجبلية التي تسيطر عليها الزراعة الرعوية، قدمت الزادروجا والكنيزينا في شومادييا Šumadija: إقليم الغابات في وسط صربيا البؤرة التي انطلقت منها الانتفاضة، إطاراً للتحكيم في المنازعات. فكانت الحياة بين العرق الواحد أقل عنفاً نسبياً في باشوية بلغراد، مما كان عليه في بعض المناطق النائية من ولايات البلقان العثمانية[٢٣].

ومن الناحية الاقتصادية بلغ حجم التجارة، بشكل عام، حده الأدنى – إذ ساد اقتصاد المقايضة، حيث شكلت الزادروجات وحدات اقتصادية مكتفية ذاتياً[٢٤]. لكن التطور الاقتصادي والاجتماعي كان يجري في الريف الصربي، فأخذت العلاقات السابقة بالضعف، وظهرت بين الفلاحين عناصر تشتغل بالتجارة وتربية الماشية وبالتحديد الخنازير لغرض البيع، وبذلك تكونت في الريف فئة صغيرة موسرة أصبحت مكانتها الاجتماعية والاقتصادية تتزايد باضطراد، لاسيما أن ممثلي الإدارة الذاتية في الريف كان يجري اختيارهم من بين صفوفها[٢٥]. ففي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر حدث تحول ملموس على طريقة انتخاب الكنيز التي كانت تتصف بالمساواة، إذ شهد الأمر وصول العائلات الأكثر ثراءً المرتبطة بتربية الماشية من الخنازير، لتستحوذ على وظيفة الكنيز في العديد من المناطق، ولما كان الكنيز مسئولاً عن جمع الضرائب للعثمانيين فإن ذلك بدوره كان يحقق أرباحاً جذابة أيضاً[٢٦].

إن طبيعة صربيا الجغرافية التي تغطيها الغابات الكثيفة الصعبة الزراعة هي التي فرضت عليها نوعية نشاطها الاقتصادي المتمثل بشكل رئيس بتربية الماشية من الخنازير، وكان الصربيون يصدرون خنازيرهم ويبيعونها على نطاق واسع في أسواق النمسا، بحيث أصبحت هذه التجارة المصدر الرئيس لدخل القسم الموسر من الفلاحين الصربيين. أما

التجارة الداخلية فكان تطورها مرتبطاً بظهور الأسواق المحلية والأسواق الموسمية ولاسيما التابعة للأديرة، ومع تطور التجارة الداخلية بدأت البلدات التي يقطنها المسيحيون بالنمو ببطء وتحولت إلى مراكز للتجارة الداخلية والخارجية[٢٧].

ثالثا: الكنيسة المحلية ونظام الملل العثماني

أما مركز الثقل الثاني للمجتمع الصربي بعد الزادروجا فكانت الكنائس الأرثوذكسية المحلية، لقد سمحت الإمبراطورية العثمانية لهؤلاء الناس بالتعايش مع المسلمين، ومكنتهم من الحفاظ على كنائسهم ولغتهم وهويتهم القومية وتركها على قيد الحياة[٢٨] . وكما هو معروف لم يعمل العثمانيون على تحويل رعاياهم قسراً إلى الدين الإسلامي، واستندت إمبراطوريتهم على أساس استقلال الأديان، إذ تم تقسيم الإمبراطورية إلى وحدات متمايزة وفقاً للعقيدة، تسمى الملل، فقسمت الشعوب المنضوية تحت سيادة السلطان إلى مسلمين وارثوذكس وكاثوليك وأرمن ويهود، وأكبر الملل كانت الارثوذكس فشملت اليونانيين والصرب والبلغار الرومان والفلاك فضلا عن بعض الألبان[٢٩]، وكانت باشوية بلغراد جزء من الملة المسيحية الأرثوذكسية، ووضعت تحت اختصاص البطريارك اليوناني في اسطنبول[٣٠]. وعلى الرغم من سطوة الإغريق على الكنيسة، فإن الهوية الدينية وانفصال الإدارة الدينية أبقت الصرب بعيداً من أن يجري امتصاصهم في داخل الثقافة الإسلامية، وساعدت بالتالي في الحفاظ على هوية الجماعة المنفصلة. وفي عام ١٥٥٧ تم افتتاح البطريارکية الصربية في إيبيك (Petch / Ipec) في كوسوفو، التي عملت حتى إلغائها عام ١٧٦٦ على حماية الهوية القومية الصربية. وتحت الإدارة اليونانية بعد عام ١٧٦٦ لم تتأثر الكنائس المحلية كثيراً، حيث أن معظم قساوستها بالكاد كانوا يفهمون اليونانية[٣١].

إن التسامح أو التغاضي الذي أبداه العثمانيون تجاه الأديان الأخرى كان نقطة استفادت منها القوميات المنضوية تحت سيادتهم، فلم يكترث العثمانيون كثيراً بتحويل الجماهير إلى العقيدة الجديدة، ذلك إذا ما استبعدنا بطبيعة الحال قضية الانكشارية[٣٢]. فإمبراطورية العثمانيين بنظر ساستها عبارة عن تجمع لعدة أديان يتربع الإسلام على قمتها[٣٣]. وهذا يفسر نظام الملل العثماني، الذي منح الاستقلال الديني لكل المجاميع غير المسلمة في جميع أرجاء الإمبراطورية، باعتبارهم أهل ذمة. وربما دعا هذا التسامح الذي لم تشهد له هذه المنطقة حتى ذلك الوقت مثيلا، إلى دفع بعض الناس إلى اعتناق الإسلام[٣٤]. وحتى صربيا المعروفة بتعصبها الديني حتى يومنا هذا لم تخل من الإسلام، حيث ذكر الرحالة التركي الشهير (أولياجلبي) وهو يصف مدينة بلغراد عام ١٦٦٩ بأنه "كان فيها ٢١٧ مسجداً، وثماني مدارس، وتسع دور للحديث، وسبع عشرة تكية للذكر، و٢٠٠ من الكتّاب لتعليم الصبيان، وسبعون لتعليم الفتيات[٣٥].

إن نظام الملل العثماني الذي اتبع سياسة تصنف مواطنيها على أساس الدين، كونه المعيار الأوحد، كان يرحب بالمتحولين إلى الإسلام، الذين عدوا مواطنين من الدرجة الأولى مقارنة مع كل رعايا الدولة من غير المسلمين. لكن وعلى الرغم من ذلك، فإن الدولة العثمانية كانت دولة غير انصهارية non-assimilative state لم تستفد من ذلك التحول وتستغله في صالحها في تكوين شعب، إن صح التعبير، يمكن تسميته بالعثماني، فسمحت لشعوب البلقان المختلفة بالاحتفاظ بثقافاتها وكينوناتها الفردية. وربما كانت طبوغرافية المنطقة عاملاً مساعداً على ذلك التفرد[٣٦]. ويبدو أن الأتراك العثمانيين كانوا أقل حضارة من شعوب البلقان الذين احتلوا أراضيهم، ولم تصمد إمبراطوريتهم لعدة قرون هناك، إلا بسبب فاعلية وكفاءة مؤسستهم العسكرية وانقسام القوى الأوربية. إن مشكلة

الأتراك العثمانيين الجوهرية في ذلك الوقت هي كونهم "أمة محاربة" وليسوا "أمة عاملة". فعندما توقفت الحروب التوسعية وعملية تكديس غنائم الحرب، كان السبيل الوحيد الذي يعرفه الأتراك العثمانيون لكسب سبل العيش هو جباية أموال الرعية حتى آخر فلس[٣٧]. وهكذا أصبح العامل الذي ساعد العثمانيين بادئ الأمر على الانتصار في البلقان، ونعني تسلط حكام البلقان من بيزنطيين وغيرهم على السكان، هو نفسه الذي أسهم في سقوط ملكهم هناك.

ونظام الملل هذا في حقيقة الأمر كان الهدف منه إدارياً وليس من منطلق التسامح المجرد، إذ عهد إلى كبار رجال الدين من كل كنيسة إدارة أمور ملتهم لاسيما من ناحية جمع الضرائب وفرض النظام العام وإدارة أمور القضاء في القضايا التي لا تتداخل مع شؤون المسلمين، وبالتالي يوفر على السلطات العثمانية أموالاً وجهداً من لو أنها عينت موظفين وعساكر لتلك الأغراض[٣٨].

من ناحية أخرى، سمح ذلك التسامح إن صح التعبير، كنتيجة عرضية، على الإبقاء على الكنائس سواءً في المدن أو القرى، وقد ترأس النوع الأخير القساوسة أو الشمامسة الأرثو ذكس الذين غالباً ما كانوا بالكاد يعرفون قراءة وكتابة اليونانية. وكان بعض الصبية الصغار ممن يأمل آباءهم أن يصبحوا رهباناً يتعلمون حروفها الهجائية من الكهنة المحليين. والأكثر حظاً كانوا يذهبون إلى المدرسة في فويفودينا Vojvodina: المدينة على الجانب النمساوي الآخر (الواقعة في صربيا الحالية) التي تقدمت على باقي المدن الصربية بسرعة أكبر[٣٩]. أما المسئولون اليونانيون فترأسوا الكنائس في المدن، فبعد إلغاء البطريركية الصربية في عام ١٧٦٦ نتيجة لضعف الولاء الذي أظهرته في حروب العثمانيين مع النمسا[٤٠]، عين الفناريون Phanariots على رأس التسلسل الهرمي للكنيسة حتى عام ١٨٣١ عندما أعيد العمل بالبطريركية الصربية[٤١]. ولم تسلم هذه المؤسسة تحت رئاسة الفناريون من عوار، ففي كثير من الأحيان كان يتم شراء المناصب الكنسية، فأدى الفساد العام وإجراء القداس باللغة اليونانية إلى نفور الصرب من الكنيسة الرسمية خلال هذه الحقبة[٤٢].

من دون شك كانت الكنيسة الأرثوذكسية وسيلة مهمة لنقل موروث الماضي والحفاظ عليه، على الرغم من أن البطريركية تحت الرئاسة اليونانية عادة ما تعاونت مع الحكومة العثمانية، فإن الكنائس المحلية بصورة عامة أبقت الوعي حياً في أن أعضاءها مميزين وأن المسلمين ما هم إلا مغتصبين للأقاليم المسيحية، ولما كانت الكنيسة تشكل المركز التعليمي الوحيد، تمكنت المعاهد الأرثوذكسية من ضمان عدم استطاعة السلطات العثمانية في أن تكون في وضع يمكنها من السيطرة على الفكر المسيحي، إذ أن الافتقار إلى المدارس العلمانية حرم الحكام المسلمين من تلك الأداة الدعائية. إضافة إلى ذلك احتفظ الأدب الديني الشعبي بقصص وروايات عن سير القديسين والشهداء، وكان من بين الأبرز منها حكايات عن الشهداء الجدد، الذي عانوا الأمرين في دفاعهم عن مسيحيتهم ضد الإسلام[٤٣].

وكان للكنيسة الكاثوليكية أثر بسيط، فخلال الحروب بين النمسا والدولة العثمانية كانت حكومة فيينا تفرض في بعض الأحيان سيطرتها الإدارية على الأراضي الصربية، ولكن على الرغم من معارضة السكان للحكم العثماني، لم تحظ الهيمنة النمساوية بكثير من الشعبية، ربما تأتى ذلك بسبب أنشطة الكنيسة الكاثوليكية. التي حاولت بموافقة أسرة

الهابسبورغ Habsburg الحاكمة في النمسا على إجبار رعاياها تغيير معتقداتهم الدينية. ولم تكن فكرة استبدال مولى مسلم بآخر مسيحي كاثوليكي جذابة جداً، ولا كان ذلك هدفاً رئيساً، لكن السكان الصرب سعوا لاحقاً لذلك باعتباره بديلاً سياسياً[٤٤].

ويرى بعض الباحثين الجدد أنه بالمقارنة مع الزادروجا لم تكن الكنيسة الأرثوذكسية فعالة بما فيه الكفاية في الحفاظ على التقاليد الاجتماعية والثقافية للصرب، فكان للتسلسل الهرمي للكنيسة الصربية نهج ديني ضيق لا يسمح بإيضاح الهوية القومية[٤٥] ، وأنه غالباً ما يفترض خطأ أن الكنيسة كانت حاملاً للهوية الصربية خلال أربعة قرون من الحكم العثماني[٤٦] . وأن دورها كان محدوداً، لاسيما أنها لم تستخدم اللهجة العامية، لكنها في أحسن الأحوال إن لم تستخدم اليونانية، استخدمت اللغة السلافية-الصربية، وهي لغة معدلة عن الكنيسة السلافية القديمة، لم يكن باستطاعة الكثير من الفلاحين الأميين فهمها[٤٧]. والتسلسل الهرمي للطبقات الكنسية العليا الذي كان يهيمن عليه اليونانيون في فترة إلغاء البطريركية الصربية، قد رفع من درجة النفور الصربي من الكنيسة الرسمية[٤٨].

يمكن للأديرة في الأقل أن تدعي الوصاية على التقاليد الرمزية للإمبراطورية الصربية في القرون الوسطى، غير أن الرهبان والقساوسة المحليين في الباشوية لم يكونوا في كثير من الأحيان إلا عبارة عن زوائد من غير المتعلمين على الزادروجا والكنيزينا، ولم يقوموا بأكثر من إدارة مراسم الزفاف، والجنائز والتعميد. وعادة ما كان يتم تعيينهم من قبل الكنيز المحليين فيصبحوا بذلك مدينين لهم بالمكانة التي حصلوا عليها، ولم يمارسوا إلا تأثيراً عقائدياً بسيطاً على الفلاحين[٤٩].

مع ذلك لا يمكن التقليل من دور الكنيسة في النهضة القومية الصربية في الأقل من الناحية الفردية، إذ أنجبت بعض القادة الوطنيين الصرب الشباب، بما فيهم ماتيا نينادوفيتش Matija Nenadovic، الشخصية الرائدة في التمرد الصربي، ورجل الدولة البارز والدستوري في السنوات اللاحقة[٥٠].

رابعا: أثر الأناشيد الملحمية ومجد القرون الوسطى في إذكاء الروح القومية

ظل مجد صربيا في القرون الوسطى حياً في أذهان الصرب كان من بين الأسباب التي أدت إلى عدم انصهار المجتمع الصربي داخل الإمبراطورية العثمانية، فعلى الرغم من الأمية المنتشرة في الريف الصربي، تناقل الصرب قصص ذلك المجد شفاهة وصاغوه في أناشيد وقصائد غنائية[٥١]، وتمثل مجد القرون الوسطى الصربي العظيم، بمملكة ستيفن دوشان Stephen Dušan وأسرة نيمانيا Nemanja المالكة، التي قامت في منتصف القرن الرابع عشر وامتدت من بلغراد إلى البيلوبونيز، المجد الذي لم ينسه الصرب وظل محفوراً في الذاكرة[٥٢].

لقد كانت القصيدة الملحمية الشفوية هي الأنموذج الثقافي الأكثر تطوراً بين الصرب، وكانت تنشد أو تتلى من لدن الموسيقيين المتجولين الذين عادة ما كانوا من العمي العازفين على آلة موسيقية مكونة من وتر واحد (جوزة gusle)، ويذكر لافان صاحب مؤلف "حماة البوابة" إن الصرب حفظوا تلك القصائد عن ظهر قلب كونهم أميين وذاكرتهم لم يضنها فن القراءة والكتابة بعد[٥٣]. وتناولت القصائد الغنائية المواضيع الكبرى في تاريخ صربيا قبل الظهور العثماني، ولكن الأهم من بين كل الروايات كانت القصة المتوارثة عن السقوط المأساوي، لكن البطولي في معركة كوسوفو بوليي (قوصوه) في عام ١٣٨٩، التي خسر فيها جيوش الصرب معركتهم الفاصلة أمام جيوش السلطان مراد الأول الذي قتل في

أعقاب المعركة على يد أحد الأسرى، والتي تغنى بها ولقرون الشعراء الملحميون وأطرب عليها الفلاحون الصرب[٥٤].

لقد أصبحت القصص عن السقوط الصربي البطولي في معركة كوسوفو بوليي، وبعض الأحداث الأخرى من فترة العصور الوسطى، حجر الزاوية في أساطير القومية الصربية الحديثة[٥٥]، فأدى الشعر الملحمي الشفوي الموروث دوراً هاماً في الحفاظ على الوعي القومي الصربي[٥٦]، فالشعراء الغنائيون الذين هدفوا في الأساس إلى التسلية، كانت حكاياتهم تشجع على إنماء وعي تاريخي أسطوري تصوري. كما تضمنت أكثر الأناشيد، الغنية بالصور الطبيعية، رسائل أخلاقية مطلقة[٥٧]. وأضافت القصائد الملحمية الشفوية بعض الأمور غير الواقعية، كل مؤدي حسب ما تجود به مخيلته، إلى الحقائق التاريخية، وأضفت هالة من القدسية على أبطالهم الوطنيين[٥٨]، وهذا المصطلح الأخير كان فضفاضاً، فإلى جانب الأدب الشفوي المستند إلى محتوى ديني أو تاريخي، كانت كل شعوب البلقان لها قصائد غنائية تتضمن أغاني تتغنى بنشاطات الهايدوك haiduk أو الكليفت klepht من مجاميع عصابات قطاع الطرق، وعلى الرغم من أن هؤلاء الخارجين على القانون لم يكونوا لا قوميين ولا حتى وطنيين، غير أنهم أوجدوا وعاءً لشخصية بطولية جذابة وكان سيكون لها شأن في النضال القومي المستقبلي. الأغاني التي أكدت على الحرية وعلى الرجولة والطبيعة كانت تركز بصورة رئيسة على نشاطات الأفراد الذين بجهودهم الذاتية أو مجتمعين مع رفاق مخلصين في عصابات شديدة الأواصر، كانوا يقاتلون بشراسة وشجاعة ضد أعداء أشداء. إن معارضة الحكم الاستبدادي وإلباس حياة البطولة هالة المجد كانت تطبيقا واضحاً لنزعة المقاومة للحكم العثماني[٥٩].

خامسا: الحروب النمساوية العثمانية وأثرها على اندلاع الانتفاضة

ربما كان لمواقع الصرب في الولايات الشمالية للإمبراطورية العثمانية على الحدود مع إمبراطورية آل هابسبورغ، إثر في إضعاف سلطة الباب العالي المركزية، حيث التأثيرات الخارجية أقوى من أي مكان آخر في الولايات العثمانية الأخرى في أوروبا[٦٠]. وفي المدن السلافية كانت هناك مستعمرات صغيرة للتجار الأوربيين لاسيما في مدينة دوبروفنيك Dubrovnik (جنوب كرواتيا الحالية على الأدرياتيك) المدينة التي تمتعت بنوع من الاستقلال نتيجة للصراع الدولي بين العثمانيين والنمساويين والبنادقة[٦١]، وبعض المدن الأخرى على ساحل البحر الأسود[٦٢].

ولكن الاتصال الآخر الذي شكل الأهمية الأكبر للصرب لاسيما في باشوية بلغراد، تمثل في العلاقة مع إمبراطورية النمسا المحاددة لها على طول نهري الدانوب وسافا Sava[٦٣]. لقد عملت النمسا باستمرار على توسيع نفوذها في البلقان، وسعت بدأب إلى توسيع ممتلكاتها هناك على حساب الأراضي العثمانية، وقد دفعها ذلك إلى شن سلسلة من الحروب على الدولة العثمانية طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبما أن المناطق التي قطنها الصرب كانت تؤلف المسرح الرئيس للعمليات العسكرية في تلك الحروب، سعت النمسا إلى استخدام الصرب من رعايا الدولة العثمانية بصفة حلفاء لها في حروبها، وكان الصرب من جانبهم يوقتون تحركاتهم المسلحة ضد السيطرة العثمانية مع تلك الحروب، التحركات التي حظيت على الدوام باهتمام السلطات النمساوية التي كانت تبذل كل جهد ممكن لاستغلالها في صالحها من جهة، ولتلافي أخطارها المحتملة المتمثلة بالتأثير العكسي الذي يمكن أن تبديه على سلاف الجنوب من رعايا النمسا من جهة أخرى[٦٤].

فبفضل الاتصال مع الهابسبورغ، انتقل العديد من الصرب إلى أراضيها خلال القرن السابع عشر[٦٥].

ونتج عن صراعات الربع الأخير من القرن السابع عشر بين الإمبراطوريتين إبرام معاهدة كارلوفيتز (كارلوفجه) Karlowitz في عام ١٦٩٩، التي جرت مراسيمها على ارض بلدة سريميسكي كارلوفتشي Sremski Karlovci في مقاطعة فويفودينا في صربيا الحالية، وأنهت صراعاً امتد منذ عام ١٦٨٣، غدت بموجبها إمبراطورية آل هابسبورغ إحدى قوى البلقان الرئيسة. ويبدو أن آل هابسبورغ وفقاً لمعاهدة كارلوفيتز قد ساعدوا على إطلاق رغبة الصرب في الحكم الذاتي، وذلك لما بدأ الصرب بالوقوف ضد الإمبراطورية العثمانية[٦٦].

لم تكن المعاهدة خاتمة للصراع بين الدولتين إذ سرعان ما غدت المنطقة مسرحاً لحروب عديدة غطت مدة طويلة من القرن الثامن عشر، إذ نشب القتال بين العثمانيين والهابسبورغ في الأعوام ما بين (١٧١٦-١٧١٨)، و(١٧٣٧-١٧٣٩)، و(١٧٨٨-١٧٩١). خلال هذه الأعوام ارتبط مصير السكان الصرب بعمق مع النمسا. فقد أدت الحروب والفوضى العارمة التي رافقتها إلى هجرة مجموعات كبيرة من الصرب تجاه الأراضي النمساوية، ولاسيما باتجاه جنوبي المجر[٦٧]، أو في المناطق الحدودية المتناقلة باستمرار بين الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية، مما كثف الاتصال بين السلاف الصرب الأرثوذكس المسيحيين على الجانبين، على الرغم من الوضع الاجتماعي والسياسي المختلف في ظل إمبراطوريتين مختلفتين[٦٨].

أهم تلك الهجرات كانت الهجرة الجماعية عام ١٦٩٠ لحوالي ٣٦ ألف عائلة صربية بقيادة بطريارك إيبيك أرسينيي الثالث Arsenije III. الذي فقد ثقة العثمانيين بسبب موقفه المؤيد للنمساويين، فقام بهجرة كبيرة عبر نهر الدانوب إلى سيرميا Syrmia و باتشكا Batchka وبانات Banat. وقد جعلت هذه المجموعة من منطقة سريمسكي كارلوفيتشي في كارلوفتز مركز ديني وثقافي للعنصر الصربي هناك[٦٩]. منح الإمبراطور النمساوي جوزيف الثاني (١٧٤١-١٧٩٠) هؤلاء المهاجرين امتيازات معتبرة، ونصب البطريارك على منطقة كارلوفتز وليحمل الصفة القضائية نفسها على الأرثوذكس التي كان العثمانيين قد منحوه إياها في بطريارکية إيبيك في كوسوفو، وعلى الرغم من عدم تطبيق جميع الحريات التي وعدوا بها، فإن صرب جنوب المجر تمتعوا بقدر من الحرية في الحياة القومية[٧٠]. وبقي هؤلاء على اتصال وثيق مع الأحداث التي تجرى على صربيا العثمانية، وكان لهم تأثير هام على الوعي القومي، وعلى التنمية الثقافية، وعلى إدارة الدولة القومية الصربية المستقبلية في القرن التاسع عشر[٧١].

إن تواجد أعداد كبيرة من الصرب على الأراضي النمساوية كان له أثر مهم آخر إذ شهد عام ١٧٧٧ قيام تقسيم إداري في النمسا عرف بمنطقة "الحدود العسكرية" (Militargrenze)، أنشأ بصورة تدريجية على طول نهري الساف والدانوب ليشكل حاجزاً مع الدولة العثمانية، وكان نصف سكانه من الصرب. كل رجل من السكان كان فلاحاً وجندياً في الوقت نفسه، منح ملكية أرض زراعية بصورة مباشرة من التاج، وأصبح خاضعاً للنظام العسكري طوال حياته. وفي أوقات السلم شكل قادة هؤلاء الجنود من الضباط سلطاتهم المحلية، وكانوا بدورهم يتبعون إلى قيادة أعلى في منطقة أكرام Agram

وبيتروارادن Peterwardein، في حين كانت السلطة العليا للنظام بأكمله من مسئولية وزارة الدفاع في فيينا[٧٢]، هذا التقسيم الإداري كان له أهمية خاصة بأنه ساعد على تحويل فلاحي صرب النمسا إلى محاربين محترفين.

لذا نجد أن الصرب شاركوا على نطاق واسع في الحرب الروسية العثمانية (١٧٨٧-١٧٩٢) وشكلوا على أراضي النمسا التي اشتركت إلى جانب روسيا في هذه الحرب[٧٣]، فصائل مسلحة من المتطوعين حيث تزعم كوكا أنديلكوفيتش Koca Andjelkovic فصيلاً كان يعمل في داخل باشوية بلغراد نفسها، وقد كان تأثير هذا الزعيم واضحاً إلى درجة أطلق على العمليات العسكرية الصربية ضد العثمانيين آنذاك (حرب كوتشي) أو (تمرد كوكا) نسبة إليه[٧٤]. وعلى الرغم من عدم حصول الصرب على فوائد مباشرة من هذه الإجراءات، فإنهم تحصلوا على تدريب في مؤسسة عسكرية نظامية، فضلا عن الثقة التي اكتسبوها في قدراتهم الذاتية[٧٥].

إن الحروب النمساوية العثمانية أثرت في تطوير القدرات القتالية والقيادية لصرب الدولة العثمانية بشكل ملموس، فأولئك الذين قاتلوا من أجل النمسا عادوا إلى صربيا يحملون دراية ومعرفة بتنظيمات وتكتيكات الجيش النمساوي، التي يمكن تطبيقها في المواجهة الصربية مع العثمانيين. كما أنهم قاموا بالاتصال مع شعوب شمال نهر الدانوب، بما في ذلك التجار الذين يمكنهم توفير الأسلحة والذخائر، فضلاً عن القادة العسكريين، والأفراد السياسيين الذين يمكنهم تقديم المساعدة في القتال والدبلوماسية[٧٦]. وكان زعيم التمرد الصربي الأول قراجورجي Karadjordje، من بين صرب الباشوية الذين انضموا إلى القوات النمساوية[٧٧]. لقد خدم الصرب بصفة أفراد في ميليشيات غير نظامية تابعة للجيش النمساوي، وعادة ما ذهبوا للقتال في وحدات خاصة بهم بإمرة ضباط من جلدتهم، وقد أثبتت الخبرة المكتسبة في حرب (١٧٨٨-١٧٩١) قيمة خاصة، ففي هذا الوقت انضم العديد من الصرب إلى الفيلق الحر الهابسبورغي، والذي حمل ثقلاً كبيراً في المعارك[٧٨].

عندما عاد الصرب إلى ديارهم في الباشوية بعد أن أصدر الباب العالي في عام ١٧٩١ عفواً عن الذين شاركوا في العمليات العسكرية إلى جانب النمسا أو كانوا قد فروا إلى هناك، سرعان ما لاحظ وكلاء السلطان التغيير في سلوك السكان: "جيراننا، ماذا صنعتم برعيتنا؟ هذا ما توجه به أحد الباشوات الأتراك في سؤاله لمسئول نمساوي، عندما استعرض فوج من الصرب أمامه. على أية حال عندما أعيدت السلطة العثمانية تم حل القوات الصربية، ولكن دروس القتال التي تعلمها الفلاحون لم تكن لتنسى[٧٩].

لم تقتصر أثر الحروب النمساوية العثمانية على أثرها العسكري وحسب ففي خلال فترات الاحتلال النمساوي للأراضي الصربية التي حدثت أثناء الحروب السجال بين الدولتين وانتقال تابعيتها بينهما، وكانت أطولها إحدى وعشرون سنة متتالية (١٧١٨-١٧٣٩)، أعطي الصرب وظائف إدارية في المنطقة، أرفع مما كان يوكل إليهم في ظل الحكم العثماني[٨٠]. كما كان للحروب تلك اثر اقتصادي ايجابي على الصرب كذلك، فكان المجتمع الصربي التجاري الكبير في فويفودينا (المحافظة الصربية/المجرية المختلطة في إمبراطورية هابسبورغ إلى الشمال من بلغراد) حلقة وصل حيوية في إقامة صلات التجارة[٨١]، وفي تلبية طلب إمبراطورية الهابسبورغ النهم للحم الخنزير، وحتى بعد أن عادت الباشوية إلى السيطرة العثمانية في عام ١٧٩١، واصلت تجارة الخنزير في الازدهار[٨٢]. في بداية القرن التاسع عشر كان الفلاحون الصرب يأخذون أعداد كبيرة من

قطعان الخنازير إلى النمسا في الشمال للبيع، وبالتالي كان تجار الخنازير هؤلاء على اتصال مع كل من النمساويين وسلاف جنوب النمسا أنفسهم، الذين كان لهم أن يؤدوا دوراً هاماً في النضال ضد الأتراك(٨٣).

لقد وجد الصرب في سنوات القرن الثامن عشر أنفسهم مقسمين بين النظامين الإمبراطوريين العثماني والنمساوي. والحقيقة أنهم في ظل الحكومتين كان مشكوك في ولائهم ولم تسلم طموحاتهم القومية من القمع من الجهتين. فبعد أن ألغى العثمانيون البطرياركية الصربية في إيبيك في عام ١٧٦٦ نتيجة للولاء الذي أظهروه والمساعدة التي قدموها للنمسا في حروبها ضد الدولة العثمانية، ألغت الحكومة النمساوية في ١٧٧٨ لجنة هوفديبيوتيشن Hofdeputationy التي أنشأتها لرعاية المصالح الدينية للقوميات غير المجرية أو الألمانية في المجر ومن بينها الصرب بطبيعة الحال. مع ذلك، استمر الصرب في التفاوض مع فيينا لاستعادة الحرية المسلوبة، غير أن الأخيرة لم تكن لتلق لهم بالاً إلا في حال طرأت حاجة تستدعي قتالاً على الحدود مع العثمانيين، أو لاحت ضرورة للضغط على المجر المستقرين في جنوبها(٨٤). ونتيجة لخيبة الأمل واليأس من الحصول على الحرية عن طريق الهابسبورغ بدأ بعض الصرب بهجرة جديدة هذه المرة إلى روسيا، المكان الذي ذهب إليه أعداد متزايدة من الشباب الصرب لإكمال تعليمهم(٨٥).

سادسا: التوجهات الإصلاحية في عهد السلطان سليم الثالث وتسلط الانكشارية

إن خسارة الممتلكات جراء الحروب الفاشلة وعقد معاهدات السلام كشف ضعف الحكومة المركزية في الإمبراطورية العثمانية، وإن فقدان الأراضي في أوروبا وأفريقيا وآسيا وتوقف الحرب عنى أن الجنود والإداريين العثمانيين كان عليهم العودة إلى المركز، والذين ما لبثوا أن ركزوا جهودهم على كسب الثروة والسلطة. ولحماية العاصمة من أعدادهم المتزايدة أرسل السلطان أفراد الإنكشارية، الذين نُظر إليهم على أنهم تهديد مباشر للحكومة المركزية، إلى المناطق النائية من الإمبراطورية، وكان من بينها باشوية بلغراد(٨٦). وبعد أن وصل أفراد الانكشارية إلى هناك، حاولوا إجبار الفلاحين على التخلي عن أراضيهم التي توارثوها، وتحويلهم إلى مستأجرين على ملكية جديدة أصبحت تعرف باسم التشفتيليك citluk / Chiflik ، فأصبح وفقاً لترتيباتها طرد الفلاحين ممكناً، وكان مطلوباً من الفلاح دفع إيجارات مرتفعة تتراوح ما بين ثلث ونصف الناتج الإجمالي للملكية الجديدة. لقد أساء هذا التطور إلى الفلاح الصربي الذي كان معتقداً اعتقاداً تاماً أن الذي يفلح الأرض هو من يتوجب أن يتملكها(٨٧).

وهكذا خلال أواخر القرن الثامن عشر، كان نظام الإقطاع العسكري القديم المقبول (التيمار) يتآكل بسبب دخول هذا الشكل الجديد القاسي في إدارة العقارات، الذي حوّل الفلاح إلى مزارع مثقل بالديون. المشكلة الكبرى أن ملكية الأراضي من الناحية الرسمية، مثلما مر بنا سابقاً، كانت موزعة على السيباهية المسلمين منذ قرون مضت، فسعى الملاك الرسميون في باشوية بلغراد إلى الإبقاء على نظام التيمار ضد الإنكشاري صاحب التشفتيليك، الذي وهذه الحال قد سرق من الفلاح الصربي والمالك المسلم على حد سواء(٨٨). لذلك لوحظ في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، قيام صراع بين أرباب الإقطاع العسكري التقليديين (التيمار) الذين لم يتخلوا عن حقوقهم، وبين الانكشارية الذين تحولوا إلى جنود منفلتين يعملون على إخضاع الفلاحين والاستحواذ على أراضيهم بمختلف السبل، فتحولوا إلى ملاك اعتياديين للأرض غير ملزمين بتأدية الواجبات العسكرية المفروضة على صاحب الإقطاع العسكري القديم. والمهم من ذلك الصراع أن خضوع الفلاحين الصرب أصبح مزدوجاً لأصحاب الإقطاع العسكري الذين احتفظوا بحقهم

في الأرض وبالالتزامات المفروضة على الفلاحين، ولأفراد الانكشارية الملاك الجدد[٨٩]، الذين تجاهلوا السلطات الرسمية وعملوا على فرض سلطتهم الخاصة وتوسيع ممتلكاتهم.

وحدة الهدف بين الصرب والسلطات العثمانية المتمثلة بالقضاء على تسلط الانكشارية، حولت الصرب في تسعينيات القرن الثامن عشر إلى حلفاء للسلطان سليم الثالث (١٧٨٩/١٧٦١-١٨٠٨)، الذي أراد استعادة النظام في البلقان[٩٠]، والذي كانت تنتظره مهمة صعبة جداً، لو أنه أراد اللحاق بركب الحضارة الأوربية التي أخذت تغذ الخطى نحو التقدم.

لقد رفضت النخبة العثمانية تعديل الهياكل الاجتماعية والعسكرية وفقاً للتطورات الاقتصادية والتكنولوجية في الإمبراطوريات الأوروبية الأخرى. كونهم محميون بالامتيازات، قاوم غالبية الولاة والحكام من التسلسل الهرمي الإسلامي، والعلماء، وطبقات الضباط المتضخمة في الجيش، زحف الأفكار والنظم الإدارية الأوربية، التي رأوا فيها تهديداً للتقاليد العثمانية. بعد أن أضحت هناك أصوات في الباب العالي تدعو إلى التحديث، وترى انه إذا رفضت القيادة تبني التطورات الحديثة في مجال العلوم، فإن الجيش، مفتاح للسيطرة العثمانية، سوف يتم إفساده بصورة غير قابلة للإصلاح. وقد وجدت هذه الأصوات آذانا مصغية في عهد السلطان الشاب سليم الثالث في العقد الأخير من القرن الثامن عشر وخلال السنوات الثمان الأولى من القرن التاسع عشر[٩١].

لفترة طويلة من شبابه، كان ولي العهد، سليم بن السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٤٧)، محبوساً من الناحية العملية في القصر الإمبراطوري. لكن سمح له الاتصال بعدد قليل من أقرانهم الذين أقنعوه بضرورة الإصلاح والابتكار. عندما خرج سليم من عزلته، لم يكن لديه خبرة عملية بالعالم، لكنه كان بالفعل مؤيداً متحمساً للتغيير[٩٢]، وكان عاقداً العزم على استعادة السلطة المحلية للدولة وإعادة تأهيلها قوة عظمى، فضلاً عن أنه كان يستمد قوته في عزمه هذا من والدته السلطانة ميري شاه[٩٣].

بحلول الوقت الذي تسنم فيه السلطان سليم العرش، تردت قوة الانكشارية لتغدو مؤسسة مكرسة لتعظيم الذات، انغمس أعضاؤها في ذلك الوقت في اتخاذ الزوجات وتأسيس السلالات الصغيرة. وتقاسم الأصدقاء وذوي العلاقات والطفيليين امتيازاتٍ كانت حصرية يوماً ما لمنظمة بعينها. وهكذا من بين ١٢ ألف من الأسماء المسجلة في قوائم الإنكشارية في اسطنبول في عام ١٧٩٠، كان ٢٠٠٠ منهم فقط يؤدون الخدمة العسكرية التي تخولهم من الناحية النظرية عضوية الانكشارية[٩٤].

خلال السنوات الأولى من حكم السلطان سليم الثالث، كانت الإمبراطورية العثمانية كما مر بنا في حرب مع آل هابسبورغ (١٧٨٨-١٧٩١)، فلم يكن هذا هو الوقت المناسب للسلطان لإدخال الإصلاحات. وانتظر حتى عام ١٧٩٤ قبل الكشف عن خططه في إنشاء (النظام الجديد)، الذي كان يتمركز في جوهره على جيش صغير حديث مكون من فلاحي الأناضول الأتراك، تم تدريبهم على أحدث التقنيات، من لدن ضباط فرنسيين بشكل رئيس[٩٥].

كان لصربيا نصيب مميز من حركة الإصلاح تلك، على الرغم من أن النمسا التي احتلت باشوية بلغراد في حربها مع الدولة العثمانية، قد اضطرت لإعادتها إلى العثمانيين للتفرغ لمواجهة جيوش نابليون بونابرت، فإن الحرب لم تخل من عواقب هامة على مستقبل الصرب. لقد دعت معاهدة صلح سيستوفا Sistova مع النمسا عام ١٧٩١[٩٦]، إلى إجراء إصلاحات أساسية في إدارة الباشوية، بما في ذلك إبعاد الإنكشارية عن الحكم[٩٧]، كما

منحت معاهدة ياسي Jassy مع روسيا عام ١٧٩٢ السلطان سليم فترة مناسبة للنظر في إصلاح الإمبراطورية[٩٨]. فرغب في إرساء ظروف سلمية ومنظمة تتماشى ورغبات رعاياه من الصرب بعد فترة الحرب المدمرة التي دارت رحاها على أرضهم في كثير من الأحيان، وإنه حتى ذلك الوقت كان الصرب مستمرين في قبول الحكم العثماني، في مقابل ضمان حقوق الحكم الذاتي المحلي وضمان الهدوء في الريف[٩٩].

ولكن بعد أن حل السلام مع النمسا، كان على الصرب مواجهة ظروف حرب جديدة، هذه المرة داخلية، إذ أنه مع توقف القتال وجد أفراد الإنكشارية والوحدات العسكرية غير النظامية أنفسهم عاطلين عن العمل[١٠٠]، وإن الذين لم يتمكنوا من الحصول على أرض بصفة تشفتيليك، بدأوا يعتدون على السكان ويقتاتون على أرزاقهم، وقاموا بنهب المسيحيين والمسلمين من المسالمين على حد سواء. في ظل هذه الظروف توافقت مصالح الحكومة المركزية والسكان المسيحيين، وكلاهما لم يعد يسمح باستمرار ذلك الوضع المؤسف[١٠١].

حاول السلطان سليم الثالث، إدراكاً منه لهذه المشاكل، استرضاء الصرب والتخفيف من الظروف السيئة، عن طريق تعيين إداريين محليين يحملون توجيهات تدعوهم إلى العمل على خدمة مصالح الناس وقمع العناصر الخارجة على القانون، ووثق ذلك في فرمانين صدرا في ١٧٩١ و ١٧٩٢[١٠٢]. بعدها أصدر السلطان في عام ١٧٩٤ فرمان منع فيه الانكشارية وأصحاب التشفتيليك من التواجد على أراضي باشوية بلغراد، ومنعهم من جمع الجزية من السكان، كما نظم الفرمان جباية الجزية لصالح السلطان وأصحاب الإقطاع العسكري (التيمار) الذين أصبح من حقهم وحدهم العيش في بلغراد، ومنح سكان الباشوية الحق في اختيار الموظفين الإداريين في الأرياف، على أن يصادق الباشا الوالي على هذا الاختيار، وأعطي للصرب الحق في ممارسة التجارة بحرية. وصدر في عام ١٧٩٦ فرمان آخر وسع حقوق الاستقلال السياسي لباشوية بلغراد[١٠٣]، فأصبح بإمكانهم جمع الضرائب الخاصة بهم، وحمل السلاح، وحتى تشكيل وحدات عسكرية غير نظامية لحماية الأمن الداخلي[١٠٤].

وقد أجريت هذه الإصلاحات من لدن أكثر والي محبوب في بلغراد، وهو حاجي مصطفى باشا (١٧٣٣-١٨٠١)، الذي عرف باسم (أبو الصرب)، فكانت جهود الصرب لاستعادة إصلاحات حاجي مصطفى باشا هي التي أدت إلى إشعال انتفاضة ١٨٠٤، وأطلقت في نهاية المطاف الصراع من أجل الاستقلال عن الدولة العثمانية[١٠٥].

وفقاً لتلك المراسيم مجتمعة كان سيتم تصحيح مساوئ نظام التشفتيليك الإقطاعي، ولأصبح تطبيق هذه المراسيم المنهاج السياسي للقادة الصرب لعدة سنوات لاحقة، ولو طبقت الأمور القانونية التي احتوتها لكان أجلت الانتفاضة القومية الصربية لأعوام عدة. لكن لسوء الحظ لم يكن باستطاعة السلطان سليم الثالث ومؤيديه تنفيذ تلك القرارات، إذ استمرت نخبة اسطنبول بالاحتفاظ بمؤامراتها التقليدية، فمرة أخرى، استبعد القادة والإداريون الإصلاحيون الأكفاء من مناصبهم من جانب أولئك الذين هدد الإصلاح مصالحهم الأساسية، ومن أولئك الذين جرحت أحاسيسهم الدينية نتيجة للتنازلات المقدمة للمسيحيين[١٠٦].

بقيادة الإنكشارية وكبار ضباط الجيش العثماني التقليدي، بدأت الطبقات صاحبة الامتيازات حملة مستمرة لتقويض (النظام الجديد)، فالنفوذ الغربي في الجيش، وهذا ما اعتقدوه، كان سيشكل طرف وتد مستدق من شأنه أن يحدث ثغرة لصنع شق من شأنه تدمير عالم امتيازاتهم. لقد هدد (النظام الجديد) مصالحهم بصورة مباشرة، فوجود منافس كفوء كان سيكشف كسلهم. ولتقويض الإصلاح، قام أساطين النظام القديم بضم أعضاء جدد إلى

سلك الانكشارية بأعداد ضخمة، ليضطروا السلطان إلى دفع مرتبات وعطايا تنهك خزانة الدولة. وهكذا، قبل عام ١٨٠٩، ارتفعت أعداد الإنكشارية المسجلين في الإمبراطورية، بزيادة قدرها أربعة أضعاف عما كان عليه الرقم منذ إنشاء النظام الجديد[١٠٧].

تحديات جديدة تواجه السلطان

والواقع لو أن الإنكشارية كانت المشكلة الوحيدة التي واجهت سليم الثالث، لتمكن السلطان من التعامل معها بصورة أو بأخرى. ولكن في مطلع القرن التاسع عشر، كان عليه مواجهة الباشوات أو الـــولاة المستقلين، وهو تحد أكثر خطورة لسلطته. فقد شكل هؤلاء الحكـام الإقليميـين صـلة أساسـية فـي سلسـلة القيـادة بـين اسـطنبول وجمهـور رعايـا الإمبراطورية[١٠٨]. وكما هو معروف فإن الإمبراطورية العثمانية قد امتدت من البوسنة وبلغراد وبوخارست في الشمال إلى المغرب العربي وبلاد النهرين وفلسطين في الجنوب، ولم تكن سيطرة السلطان على هذه الحيازات الهائلة ممكنة إلا عن طريق ولاء الباشوات. وفي مطلع القرن التاسع عشر، وجد سليم الثالث انه لم يعد من الممكن الاعتماد على ولاء كثير منهم، فقد طور هؤلاء نظام حكم ذاتي متزايد بصورة أكبر من أي وقت مضى على حساب المركز المتزايد بالضعف[١٠٩].

من بين كل الباشوات شكـــل رجلين تهديداً حقيقياً للإمبراطورية العثمانية في أوروبا، وهما: بازفان توغلو عصمان باشا Pazvantoglu Osman (١٧٥٨-١٨٠٧) حاكم ولاية فيدين Widdin (الواقعة في شمال غرب بلغاريا الحالية)، وهو واحد من العديد من النبلاء البوسنيين الذين اعتنقوا الإسلام، وكان بالفعل سيد فيدين، وصوفيا، ونيكوبوليس Nikopolis، وبليفنا Plevna، وكان يحلم بإحياء بلغاريا القيصرية مع القسطنطينية نفسها عاصمة لها. وعلي باشا حاكم ايونينا Janinna (في الشمال الغربي من الولاية اليونانية إبيروس) الذي اقتطع لنفسه رئاسة القبائل في ألبانيا[١١٠]. كان كل من علي باشا وبازفان توغلو باشا طاغيتين يعكس حكمهما غير المقيد مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة العثمانية، هذا ما يظهره تصرفهما من الناحية السطحية، ولكنهما في الواقع شيدا أيضاً نموذجا من الدول (قبيل الحديثة) التي كانت بمثابة جسر بين الإمبراطورية العثمانية والدول القومية الحديثة التي ظهرت في نهاية المطاف على شبه جزيرة البلقان[١١١].

ما يهمنا في هذا المقام بازفان توغلو الذي كان قد ألف جيشاً من قطاع الطرق والإنكشارية الساخطين، واستولى على فيدين. عندما بعث حاكم فيدين الشرعي قوة كبيرة للتعامل معهم، تمكن رجال بازفان من القضاء عليها وكان ذلك الانتصار سبباً في إعلان استقلاله عن السلطان في عام ١٧٩٥[١١٢]، وتمكن من توسيع رقعة إمارته حتى شملت المناطق الواقعة من الدانوب جنوباً حتى جبال البلقان شمالا ومن بلغراد غرباً حتى فارنا Varna شرقاً[١١٣] . لقد كان للتمرد في فيدين تأثيراً مثيراً على الإمبراطورية العثمانية، إذ توافد المرتزقة من إرجاء ممتلكات العثمانيين في أوروبا للانضمام إلى بازفان – من الإنكشارية من صربيا والبوسنة، ومن الجنود الألبان غير النظاميين، ومن المرتزقة الكيركالي kircali: وهم قطاع طرق من البدو كانوا يقدمون خدماتهم لمن يدفع أكثر، ويعد الكيركالي أعنف وحدة من المرتزقة. خيولهم المزينة بالذهب والفضة، ومحظياتهم اللاتي يرتدين زي الرجال ويرافقنهم إلى ساحة المعركة، كل ذلك كان لها لمسة مسرحية عجيبة على منطقة فيدين[١١٤].

مثل ما مر بنا قضت أوامر سليم الثالث بمنع عودة الانكشارية إلى بلغراد، وهو الإجراء الذي اختار أفراد الانكشارية مقاومته، إن تحديهم للحكومة المركزية أصبح ممكناً عن طريق أعمال موازية من جماعات بازفان توغلو المتمردة، فأصبح للإنكشارية والحالة هذه قضية مشتركة مع أولئك الذين لم يقبلوا بسلطة الباب العالي[١١٥]. وهكذا لم يكتف بازفان توغلو بحكم أراض بلغارية واسعة، لكنه أراد أيضا تنصيب أصدقاءه الإنكشارية حكاماً على بلغراد[١١٦]. فغزا أفراد الانكشارية بلغراد في عام ١٧٩٣ واصطفوا إلى جانب بازافان توغلو ضد السلطات العثمانية بمساعدة المرتزقة الكيركالي[١١٧].

لقد أثار هذا التحدي الجديد استجابة سريعة، إذ أرسل سليم الثالث جيشاً لمحاصرة فيدين[١١٨]. ومن أجل تحقيق التوازن في القوة العسكرية لهذه المعارضة، أجبرت السلطات العثمانية على طلب مساعدة الصرب، وكانت سياسة الاعتماد على الصرب ومنحهم امتيازات خاصة قد ارتبطت بحاكم باشوية بلغراد، حاجي مصطفى باشا، وذلك لتحييد حلفاء بازفان توغلو في بلغراد[١١٩]. كان السلطان عازماً في ذلك الوقت على التصرف بشكل حاسم، فأعطى الصرب امتيازات جديدة، وسمح لهم بتأليف جيشهم الخاص تحت إمرة قادة صرب، فتمكن الصرب من إنزال هزيمة بانكشارية بازفان توغلو في عام ١٧٩٣ في معركة كولاري Kolari القرية في مقاطعة سميديريفو[١٢٠]. لقد كان تحالف القوات العثمانية الرسمية مع المسيحيين تحالفاً ناجحاً، إذ عانى بازفان توغلو من الهزائم بشكل متكرر، حتى تراجع في النهاية إلى حصن في فيدين وضرب عليه الحصار. وتمكن حاجي مصطفى بمساعدة الصرب من طرد الانكشارية نهائياً من صربيا والتحقوا بسيدهم في فيدين[١٢١].

مرة أخرى لم تسعف الظروف العالمية العامة الجهود العثمانية، إذ لما بدا أن السلطان ينجح في استعادة سيطرته على الشؤون الداخلية وأنه يستعد لتعزيز برنامجه الإصلاحي، خانته فرنسا الثورية[١٢٢]. ففي عام ١٧٩٨ غزا نابليون مصر، مما اضطر الباب العالي إلى تجريد منطقة البلقان من القوات النظامية لمواجهة الغزو الأجنبي. وفي الوقت نفسه، تزايدت الضغوط في اسطنبول، إذ شكلت سياسة تسليح المسيحيين ضد المسلمين إساءة شديدة للرأي العام المحافظ[١٢٣].

لقد أخذ الغزو الفرنسي لمصر معظم أوروبا على حين غرة، أما للسلطان سليم الثالث ودائرته من الإصلاحيين، فقد شكل ذلك كارثة عملية ونفسية. إذ كان السلطان معجباً بفرنسا وطبقتها التقدمية، وكان قد أقام علاقات ودية مع الحكومة الثورية في العقد الأخير من القرن الثامن عشر لمواجهة الطموحات الإقليمية للنمسا وروسيا في البلقان[١٢٤]. على الرغم من أن منطق الثورة الفرنسية يقوّض كل ما تستند إليه الدولة العثمانية، افترض السلطان ومستشاريه أن هذا الصراع البعيد بين الجمهوريين والملكيين لن يكون له تأثير على السلطة العثمانية، مع ذلك كان غزو مصر تحذيراً للسلطان من أن فرنسا لن تعدو عن كونها قوة انتهازية[١٢٥].

لقد أثبت المزيج الجديد من الظروف أثره الكارثي على مصالح الصرب، فبسبب الغزو كان على الإمبراطورية العثمانية سحب قواتها العسكرية من على نهر الدانوب[١٢٦]، فحول السلطان قواته من فيدين لمواجهة التحدي الجديد. ولما أضحت الجيوش العثمانية الرئيسة منشغلة في مصر، لم يعد بإمكان حاجي مصطفى باشا فرض أمر الطرد على الإنكشارية. فعادت الانكشارية إلى بلغراد من ملاذهم في فيدين في ١٧٩٨[١٢٧]. واضطر السلطان سليم الثالث، لعدم قدرته على تشكيل ضغط عسكري حقيقي، إلى إصدار عفو عن الإنكشارية والسماح لهم بالعودة إلى بلغراد، على شرط التعهد بطاعة حاجي مصطفى باشا[١٢٨]، وفي الوقت نفسه كان على الباب العالي التوقيع على اتفاق مع بازافان توغلو،

ووفقاً لهذا الاتفاق، اعترفت السلطات العثمانية بالباشا المتمرد حاكماً على باشوية فيدين باعتباره تابع للسلطان[١٢٩].

ما أن أصبح أفراد الانكشارية في موقف قوي، حتى عاودوا أساليبهم القديمة، ولم يكتفوا بذلك بل ثاروا على حاجي مصطفى في عام ١٨٠١ وقتلوه. فأصبح ميزان القوى مائلاً لصالح الإنكشارية على حساب السلطة المركزية والصرب[١٣٠]، الأمر الذي كان مدعاة إلى اندلاع فوضى كبيرة[١٣١].

سابعا: تأثيرات النخبة الصربية المستنيرة في النمسا

في عهد ماريا تيريزا (١٧١٧-١٧٨٠) وجوزيف الثاني (١٧٤١-١٧٩٠) أثرت الإصلاحات المستنيرة في إمبراطورية الهابسبورغ على السلاف الصرب المسيحيين الأرثوذكس، المتفرقين في جنوب المجر ومناطق الحدود العسكرية في دالماشيا، وكرواتيا، وسلوفينيا، وجعلتهم على اتصال قوي بالحضارة الغربية[١٣٢]. وكان ذلك دافعاً لظهور حركة بعث ثقافية صربية إذ تم تأسيس مدارس ثانوية في فويفودينا في عام ١٧٩١، ومعهد لعلوم اللاهوت في كارلوفيتز في عام ١٧٩٤. كما أقيمت مطبعة باللغة الصربية في فيينا، وظهرت صحيفتين صربيتين هناك، هما: "الجريدة الصربية The Serbian Gazette، والصحيفة السلافو- صربية The Slavo–Serbian Journal في المدة ما بين(١٧٩١-١٧٩٤)[١٣٣].

وقد رافق تلك الحركة بطبيعة الحال بروز نخبة مثقفة كان من بين أبرز رجالاتها المطران الارثوذكسي الصربي لمنطقة تيميزفار Temesvar (تيميسوارا Timisoara حاليا في رومانيا) الذي كان معجباً بفولتير، وكان يحتفظ بـ ٣٨٤ كتاباً للعقلانيين الفرنسيين في مكتبته المكونة من ٩١٠ كتاباً، في حين تضمنت المكتبة الشخصية المكونة من ٥٢٤٦ كتاباً للكونت سافا تيكيليا Count Sava Tekelija (١٧٦١-١٨٤٢)، العضو بارز في الأرستقراطية الصربية ومن بين الأكثر ثراءً في جنوب المجر، على الانسكلوبيديات الكبرى بأكملها. وعلاوة على ذلك، كان دونهما العشرات من صرب الهابسبورغ المؤثرين الذين يحملون إرث عصر التنوير والثورة الفرنسية، معجبين بشدة بالأفكار الليبرالية التي انتشرت في أنحاء أوروبا في أعقاب الثورة الفرنسية[١٣٤].

بعيد الثورة الفرنسية، أثارت النخبة الصربية النمساوية قضية الحقوق القومية مبكراً منذ عام ١٧٩٠ ، وذلك جزءاً من فعاليات المجلس الكنسي الوطني الذي عقد في تيميزفار وحضره خمس وسبعون ممثلاً لأرستقراطية صرب إمبراطورية آل هابسبورغ. وعند قيامهم بذلك، كانوا على علم تام لحقيقة أن الأليريين (الصرب: كما كان يجري وصفهم لعدة قرون رسمياً من قبل حكومة فيينا)، كانوا سيصبحون أمة حديثة[١٣٥]. وفي بيان المجلس الختامي الذي طالب بإنشاء أمة صربية Gravamina und postulata، اعتمد الصرب على طروحات الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو في التأكيد على أنه ليس بالإمكان قيام أمة متميزة من دون أراضٍ خاصة أو حكم ذاتي إقليمي[١٣٦]. بعد عقد المجلس الكنسي أصبحت النخبة ترى أنه مقدر لها توفير القيادة السياسية والفكرية للحركة القومية الصربية بأكملها[١٣٧].

والحقيقة كانت هناك سابقة في مسألة الحكم الذاتي، إذ يعود أقدم مشروع لإقامة كيان يضم القومية الصربية السلافية إلى عام ١٧٣٦ حيث تخيل البطريارك أرسينيي الرابع

Arsenije IV Jovanovic Sakabenta كياناً سياسياً يحمل اسم "إيليريا الراسيانية" ("الأمة الإيليرية الراسيانية" "Illyrian–Rascian nation" أي الصرب)، بصفة دولة تتمتع بحكم ذاتي ضمن نطاق إمبراطورية الهابسبورغ، تضم كلاً من صربيا، والبوسنة، وبلغاريا، والهرسك، وألبانيا. وكان لوضعها القانوني السياسي أن تكون مماثلاً لذلك الذي للمجر، مع حكومة خاصة بها وطبقة نبيلة وكنائس ومدارس(١٣٨).

ومن بين المساهمات التي صبت في بلورة حركة بعث القومية الصربية خلال هذه الفترة، ما قدمه على أرض الواقع للمجتمع الصربي اللغوي الرومانسي القومي من فويفودينا: اوبرادوفيتش Dositej Obradovič (١٧٣٩-١٨١٤)، لما عمل على التخطيط لتأسيس المدارس الابتدائية في الباشوية نفسها. والأهم من ذلك، انه ألف قصصاً عن تجاربه الداعية إلى العقلانية والتنوير، الهادفة إلى تثقيف الشباب الصربي ليس باللغة السلافية، إذ أن القليل من الصرب كانوا يعرفون القراءة والكتابة بها، ولكنه كتب باللهجة الصربية المحلية الدارجة الأمر لا يستدعي للمتعلمين الجدد إلا إلى تعلم نطق الحروف. وهو بذلك أنار الدرب لتنمية اللغة الأدبية الصربية والأدب القومي، وتعد مدرسته خطوة مهمة إلى الأمام في تقدم الثقافة الصربية. وفي إشارة إلى مدى تأثير كتاباته يكفي أن نذكر أن المتعلمين كانوا يتلون كتاباته للأميين من الصرب(١٣٩).

وبالنظر إلى اللغة بوصفها عنصراً أساسياً للتعريف الحديث للهوية القومية وتجاوز الانتماءات الدينية، كان اوبرادوفيتش يؤكد أن "ذلك الجزء من العالم الذي يستخدم اللغة الصربية ليس أصغر من الأراضي الفرنسية أو الإنجليزية، ذلك لو تغاضينا عن الاختلافات الصغيرة التي تحدث في النطق – مع وجود اختلافات مماثلة في جميع اللغات الأخرى... وعندما أكتب عن الشعوب التي تعيش في هذه الممالك والأقاليم، وأعني بذلك أعضاء كل من الكنيسة الإغريقية [الأرثوذكسية الشرقية] والكنيسة اللاتينية [الروم الكاثوليك]، ولا استبعد حتى أتراك [مسلمي] البوسنة والهرسك، فإنه بقدر ما يمكن للعقيدة أن تغير، لا يمكن للعرق واللغة أن تتغير أبدا"(١٤٠).

إن ربط اللغة بالقومية لم ينفرد به الكتاب السلاف وحدهم، فغالباً ما لا يفرق المؤرخون واللغويون الرواد من أوروبا من أمثال الألماني جوتفريد هيردر Johann Gottfried Herder ، والمجري يوهان كريستيان فون إنجل Johann Christian von Engel، بين الاليريين والصرب ويعدونهم أمة منتشرة من استريا ودالماشيا إلى سلوفينيا، بما في ذلك البوسنة، والهرسك، والجبل الأسود، وصربيا، وحتى بعض أجزاء بلغاريا الحالية، وأنهم يتشاركون اللغة نفسها، وبالتالي، يتقاسمون الانتماء العرقي نفسه. عادين الكايكفينية kaikavian وهي اللهجة الكرواتية هي اللهجة الأصلية فقط. واقتبس فون إنجل عن دوبروفسكي Josef Dobrovski (أستاذ فقه اللغة ومؤلف تاريخ اللغة والأدب التشيكي)(١٤١)، من أجل أن يشير إلى أن بعض كتاب عصر النهضة خلط بين اللغة الصربية الدالماشية مع الكرواتية بسبب الروابط القومية والسياسية(١٤٢).

وفي تحديد الهوية القومية، يتبع الكونت تيكيليا، الارستقراطي الصربي السابق الذكر، نمط اوبرادوفيتش نفسه، في تلخيص التقليد العلمي الذي يعود إلى القرن الثامن عشر في مساواة اللغة بالقومية، التي تتجاوز الانتماء الديني، على أن "الصرب من الممالك

والولايات المختلفة يحملون أسماء مختلفة: هم الصرب في صربيا، والبوسنيين في البوسنة، ومرقش في دالماشيا، و Herzegovinians في الهرسك، والمنونتغرو في الجبل الأسود. في كل مكان يتحدثون اللغة نفسها، يفهم كل منهم الآخر بسهولة، باستثناء اختلافات طفيفة في اللهجات... وحتى أبسط صربي في فويفودينا، إذا تواجد في صربيا، أو البوسنة والهرسك، أو كرواتيا، أو سلوفينيا، يجد نفسه في وسط أمته ولغته الأم، سواء أكان من أتباع الكنيسة الشرقية أو الرومانية". وبإتباع النهج نفسه، عد الكونت تيكيليا كل السكان السلاف الناطقين بلهجة صربية في منطقة البلقان صرباً[١٤٣].

على الرغم من خليط المبادئ القومية الحديثة من الحقوق الطبيعية والسيادة الشعبية، والحقوق التاريخية الرومانسية، كانت المطالبات السياسية التي هيمنت على الثوار الصرب فيما بعد، يملؤها الطموح في استعادة دولة القرون الوسطى الصربية، وهي المثل الأعلى المنشود من قبل الممثل الرئيس للتاريخانية الرهبانية الصربية، جوفان رايتش Jovan Rajič (١٧٢٦-١٨٠١) وهو من مواليد فويفودينا أيضا، الذي أصبح مؤلفه المكون من أربعة مجلدات، الذي دون الموروث الشفوي، والذي يحكي تاريخ مختلف فروع الأمة السلافية، لاسيما الصرب والبلغار والكروات، المنشور في فيينا في المدة من ١٧٩٤-١٧٩٥، عماد الهوية القومية الصربية في أوائل القرن التاسع عشر. وعن مدى تأثير الكتاب يمكننا أن نستشهد برواية أوردها مسؤول عثماني وقع في الأسر في بلغراد خلال عام ١٨٠٦ ، حيث يقول: "دائماً ما تكون كتب تاريخ [رايتش] في متناول اليد... وإن صاحب هذا الكتاب هو الذي وضع التمرد في رؤوس الصرب"[١٤٤].

لم تكن هذه المطالبات السياسية مجرد مشاريع اصطناعية مع مراجع وأسانيد تاريخية قوية، لكنها سرعان ما تم ترجمتها على ارض الواقع بالاضطرابات السياسية بين الصرب ليس في الإمبراطورية العثمانية وحسب، بل في إمبراطورية الهابسبورغ أيضا[١٤٥]. فالصرب تعلموا بالتجارب المريرة أن النمسا الدولة المتحضرة تكون أشد عداوة لحريتهم القومية من حكومة السلطان المتأخرة لكن الضعيفة الحركة، لقد "كره الصرب النمسا مثل تركيا، لأن الأتراك كانوا يعذبون أبدانهم، غير أن الألمان خنقوا أرواحهم"[١٤٦]. وعندما انتهت الحرب في ١٧٩١ باستعادة الوضع القائم عملياً، أدى ذلك إلى خيبة أمل ومرارة غير محدودة، وأعلن الزعيم الصربي نينادوفيتش Aleksandar Nenadovic، بلهجة عنيفة قائلاً: "لقد هجرني الإمبراطور وهجر الأمة الصربية بأسرها، تماماً كما هجر أسلافه أسلافنا. سأذهب من دير إلى دير وأطلب من كل راهب وكاهن أن يطلعوا الناس بذلك، حتى لا نجد في المستقبل صربي واحد يصدق بالألمان"[١٤٧].

وقد لوحظ وجود ضجة كبيرة في الإمبراطورية الهابسبورغية بين الصرب في مناطق سريم Srem وبانات Banat (كلا المنطقتين في جنوب المجر)، وبين الجنود الصرب في مناطق الحدود العسكرية المحيطة بالممتلكات العثمانية الأوروبية[١٤٨]. وفي مذكرة أرسلت إلى الإمبراطور الروسي قبيل انتفاضة ١٨٠٤، شدد صرب منطقة سريم على النية، يشاطرهم فيها مواطنيهم في منطقة بانات، في تحرير أنفسهم "من النير الألماني [الهابسبورغي]"[١٤٩].

في الحقيقة، لم يكن بإمكان الصرب الاعتماد على مساعدة فعالة من أي قوة خارجية. فاضطروا، بسبب الموقع الجغرافي، إلى الاعتماد كلياً على أنفسهم. حيث حرموا من قبل البندقية والنمسا من الوصول إلى البحر الادرياتيكي، وبذلك لا يمكنهم الحصول

على أي مساعدة من الدول البحرية الأوربية، وتتوسط بينهم وبين حلفائهم المحتملين في روسيا إمارات الدانوب. فضلاً عن أنهم لم يكن لديهم، مثل الرومانيين طبقة من النبلاء الأصليين الذين قد يتطلعون إليهم لأجل القيادة. لذلك الخلاص يجب أن يأتي على كل حال من الفلاحين، الذين تعملوا من حروب القرن الثامن عشر فنون القتال(١٥٠).

ثامنا: تمادي الانشكارية، السبب المباشر لاندلاع الانتفاضة

بعد عودة الانكشارية وقتل الحاكم الشرعي حاجي مصطفى باشا، دخلت باشوية بلغراد حقبة من الصراع الداخلي وعدم الاستقرار، إذ خاضت الإنكشارية حروباً فيما بينها، حتى استقر الأمر على تقاسم السلطة بين أربعة من قادة الإنكشارية، وهم: فوشيك Fočich، و كوتشوك-اليا Kucuk–Alija، وملا يوسف، واجناليا Aganlia(١٥١)، الذين حمل كل واحد منهم لقب الداي dahi وفقاً لرتبهم في السلك، فتربعوا على قمة الأوضاع في الباشوية عام ١٨٠٢ . وكان تأثير هذا الاستيلاء على السلطة واضحاً على الصرب على الفور، فقد أنهيت حقوقهم الاستقلالية العرفية، وبدأت الإنكشارية مرة أخرى بإرهاب الريف، وكررت أحداث الماضي نفسها ثانية، وأعادوا تشكيل إقطاعيات التشفتيليك(١٥٢). لقد استولى الدايات الأربعة على المناطق الريفية، وأضروا بالمسيحيين والمسلمين على حد سواء، وألغوا جميع الحقوق والامتيازات التي منحتها فرمانات العقد الأخير من القرن الثامن عشر، وشددوا من استغلال الفلاحين، وفرضوا ضرائب جديدة وتعسفوا في جبايتها(١٥٣)، لقد مثلت الانكشارية منذ عام ١٨٠١ عهداً حقيقيا للإرهاب(١٥٤).

وقد وقفت بعض العناصر المسلمة المؤيدة للسلطة المركزية ضد سياسة الانكشارية هذه(١٥٥)، فكان الخلاف بين السيباهي القدماء والدايات الانتهازيين الجدد مريراً، غير أن الفلاحين الصرب هم من تحملوا العبء الأكبر من غضب الانكشارية، فكانت عمليات التفتيش العادية عن الأسلحة التي يقوم بها مفتشو الدايات تجنح إلى العنف المفرط في كثير من الأحيان، فضلاً عن فرض ضرائب باهظة على الثروة الحيوانية من الخنازير، والذي عده البعض الخطأ الأكثر خطورة الذي ارتكبه الدايات(١٥٦)، بعد أن كان الملاك القدماء لا يأبهون إلى تلك الثروة لربما ترفعاً.

لقد خلق هذا الأمر صعوبات كبيرة للصرب، فكانت الهجرة رد فعل الكثير، حيث فر الكثير منهم إلى المناطق غير الآهلة، وعمل الكثير من الرجال في قطع الطرق واللصوصية(١٥٧). إذ أن باشوية بلغراد المغطاة بغابات كثيفة كانت تسهل عملية اختباء تلك العناصر(١٥٨)، الذين إما انضموا إلى العصابات القديمة الهايدوك، الذين كانوا قد خدموا في الجيش النمساوي، أو أن المهاجرين الجدد قاموا بتشكيل عصابات أخرى جديدة. وهكذا ظهرت آثار التسلح في جميع أنحاء صربيا مرة أخرى، بعد أن كانت قد اختفت نهائياً تقريباً في عهد حاجي مصطفى باشا(١٥٩) . ففي بعض الأحيان، حمل الهايدوك سلاحهم جهاراً وهم يرتدون ستراتهم الزرقاء أو الخضراء المزينة بالنقود الفضية، ويركبون الخيول، في تحد صريح للأعراف العثمانية التي تحرم المسيحيين من الحق في حمل السلاح وامتطاء الخيول أو الجمال، وارتداء الملابس الملونة(١٦٠).

ازداد قلق الدايات لما بدأت بوادر الامتعاض والتحدي تظهر بجلاء، وارتفع معدل تدفق الأسلحة عبر نهر الدانوب من الصرب الموجودين في إمبراطورية الهابسبورغ وذلك بحلول نهاية عام ١٨٠٣. كما عادت إلى بلغراد أعداد من عصابات الهايدوك، التي كان لأفرادها اتصالات غير رسمية مع أفراد من جيش وشرطة الهابسبورغ، الأمر الذي ضمن الدعم اللوجستي للصرب، على الرغم من أن حكومة فيينا كانت تحاول قطع إمدادات

الأسلحة لتجنب اتهامها بأنها تتدخل في الشؤون العثمانية[١٦١].

كان قادة الإنكشارية أو الدايات الأربعة: قد اتفقوا فيما بينهم على توجيه ضربة استباقية لقيادة الانتفاضة المسيحية المتوقعة في مهدها[١٦٢]. وهكذا في صبيحة يوم متجمد في أواخر كانون الثاني ١٨٠٤ كان الكسندر نينادوفيتش يتم جره أمام حشد كبير من المتفرجين، مسيحيين ومسلمين. "هذه الرسالة قتلت الكسا Aleksa"، صاح فوشيك، رافعاً وثيقة الإدانة. "لقد تآمر مع الألمان [الهابسبورغ] ونددنا، نحن الإنكشارية، إلى سلطاننا. وستكون خطيئة علينا أن نترك رأسه على كتفيه... اقطعه!"[١٦٣].

وكانت جماعة من الكنيز قد بعثت برسالة استغاثة إلى السلطان جاءت فيها شكوى ضد الانكشارية مفادها "أننا حوربنا في حياتنا، ودينا، وشرفنا. وليس هناك زوج يستطيع أن يأمن على زوجته، ولا والد على ابنته، ولا أخ على أخته. وليس هناك دير أو كنيسة أو راهب أو قس في مأمن من انتهاك الحرمة"[١٦٤].

وبعد ضرب رأس نينادوفيتش، ألقيت جثته على مرج مفتوح على ضفاف نهر كولوبارا Kolubara. فكانت هذه هي بداية لحادثة في تاريخ صربيا الحديث عرفت بـ "مذبحة الكنيز" (seca knezova)، فتدحرجت العديد من الرؤوس الأخرى في الأيام القليلة اللاحقة[١٦٥]، وغرست بالخوازيق ٧٢ منها على أبواب بلغراد[١٦٦].

لقد استولى الذعر على السكان المسيحيين والمسلمين على حد سواء، إذ أوصد المسلمون أبواب دورهم، خوفاً من رد فعل من القرويين الصرب، الذين أخذوا أسلحتهم وخرجوا إلى الغابات. لقد عجل الهجوم الاستباقي "بالشيء الذي كانت الإنكشارية تأمل في تجنبه – انتفاضة صربية عامة"[١٦٧].

ويبدو إن هذه الإجراءات المفرطة في العنف كانت نتيجة لسوء تقدير مستند إلى قناعات قديمة خاطئة كانت مترسخة في عقول الانكشارية عن خنوع الصرب، ويمكننا إن نستند في ذلك على ما جاء في رسالة كتبها مستشار الدولة النمساوي إلى وزير الحرب في السادس من نيسان ١٨٠٤ ذكر فيها "إن جمهرة المسيحيين التي تتألف من ١٠ إلى ١١ ألف شخص فقط لها خصوم يساوونها في العدد من الأتراك الذين يؤلفون في واقع الأمر قوة كبيرة إلى درجة لا يستهان بها. وفضلا عن ذلك، ونتيجة لما يعرفه الجميع من تهيب الفئة الأولى ومهارة الثانية في استخدام السلاح والتعود على الأعباء الحربية، فإن التركي الواحد يتفوق على حفنة من الرعية"[١٦٨]. ويصور بعض المؤرخين الألمان، السلاف الأوائل على أنهم ليسوا محاربين حقيقيين بل إنهم يولدون عبيداً، ويدللون على ذلك بإيراد اسم هذه القومية (Slav) الذي يقولون أنه يعني عبد (Slave)[١٦٩]، فلا يستطيع السلافي قبول معركة على ميدان مفتوح، ولا يملك درعاً، ويفضل القتال بالرماح في أعماق الغابات. وقد رويت عدة قصص عن السلاف الأوائل حول غمرهم لأنفسهم في المستنقعات وهم يتنفسون من خلال قصبات مجوفة لساعات كامنين لأعدائهم[١٧٠].

لم تذهب ضربة الدايات الوقائية وفقاً للخطة الموضوعة، فعلى الرغم من أن الإنكشارية نجحوا في القضاء على أكثر من ٧٠ من الكنيز[١٧١]، ومئات من الفلاحين البائسين[١٧٢]، أخفقت إحدى الوحدات الإنكشارية في قتل جورجي بيتروفيتش Djordje Petrovic ، أو قراجورجي، الشخصية المحلية البارزة، التي كان لها دور محوري في بعث صربيا القومية الحديثة[١٧٣].

بعد الهجوم الإنكشاري، اتخذ الحراك الصربي شكل تمرد فلاحي، كان هدفه الابتدائي تخليص الريف من سطوة الدايات[١٧٤]، حيث سعى ائتلاف من السياهية والمسيحيين استعادة السيادة السلطانية والعودة إلى الحكم الرشيد الذي تجسد في حكم حاجي مصطفى الراحل[١٧٥] . وإدراكاً من الصرب للحاجة إلى تنسيق نشاطات التمرد وتوجيهه، اجتمع في شباط الكثير من الوجهاء في أوراساك Orasac، إحدى أعمال شوماديا منطقة الغابات الجبلية، أهم بؤر المقاومة، وسموا قراجورجي قائداً عاماً لهم، الخيار الموفق، حيث كان قادراً على تجميع ما لا يقل عن ثلاثين ألف رجل مسلح بمدة وجيزة. وهكذا كانت الانتفاضة الصربية الأولى قد بدأت، بعد أن أصبح لها الآن قائداً وقضية لتقاتل في سبيلها[١٧٦].

Abstract

Causes and Factors of First Serbian Uprising 1804

By Anass Ibraheem al-Obaidy

The first Serbian uprising of 1804 marked the beginning of modern history in the Balkan Peninsula and represented an unmatched importance in the history of the Eastern question, because it is considered as the first Balkan uprising in the outset of modern nationalism era, and played a major role in establishing a series of national states on the ruins of the Ottoman and Austrian empires. There were several circumstances and reasons for this particular spot of the Balkans that were behind the eruption of this uprising. Given these circumstances and reasons that the Serbs exclusively endowed with out of the rest of the Balkans, therefore this paper focuses on them. The paper is divided into subtitles each one trying to shed light on a specific cause or circumstance that played a role in shaping the national feeling of the Serbs and a forward step in the process of breaking the yoke of foreign domination until the eruption of the uprising.

الهوامـــــش:

(١) هاشم صالح التكريتي، المسألة الشرقية المرحلة الأولى ١٧٧٤-١٨٥٦، بغداد، ١٩٩٠، ص ٥٩.

(2) Misha Glenny, The Balkans: Nationalism, War and the Great Powers 1804-2012, Canada: House of Anansi Press, 2012., P. 9.

(3) L. S. Stavrianos, The Balkans Since 1453, New York: Holt, Rinehart and Winston, 1965, p. 105.

(4) Francis Dvornik, The Slav in European History and Civilization, New Jersey, 1962, pp. 353-354; Glenny, Op.cit., P. 9.

(5) Martha Meyer, The Early Development of the Serbian and Romanian National Movements, 1800-1866: A Comparison, University of Oregon, 1977, P. 11.

(6) Ibid., P. 14.

(7) Tulay Yilmaz, Serbia Under Rule of the Ottoman Empire and the Serbian Revolt in 1804, http: //www.academia.edu/, P. 3.

(8) Glenny, Op.cit., P. 7; Meyer, Op.cit., P. 12.

(9) Meyer, Op.cit., P. 12.

(10) Alekxandra Ilic, Origin and Development of Political Parties in Seribia and Their Influence on Political Life in the Period 1804-1918, POLITICAL LIFE IN SERBIA

DURING THE REIGN OF KARADJORDJE AND MILOS OBRENOVIC (1804-1838), University of Nis, Facta Universitatis Series: Law and Politics Vol. 4, No 1, 2006, P. 48.

(11) J.A.R. Marriott, The Eastern Question, Oxford, 1963, P. 179.

(12) Meyer, Op.cit., P.9.

(13) Tulay Yilmaz, Op.cit., P. 3.

(14) Dvornik, op. cit., p. 353-355.

وافق العثمانيون خلال الجيل الأول على قبول ولاء الملاك الإقطاعيين في البلقان من دون الحاجة إلى تغيير معتقدهم، مما أعطى الأخيرين استقلالية محدودة في الشؤون المحلية، على شرط مشاركتهم بقوات عسكرية معينة في الحروب إلى جانب الدولة العثمانية.

(15) Meyer, Op.cit., P.9.

(16) Ibid., P. 9.

(17) Ilic, Op.cit., P. 42.

(18) Meyer, Op.cit., P. 9.

(19) Glenny, Op.cit., P. 7.

(20) Ian D. Armour, A History of Eastern Europe1740-1918: Empires, Nations and Modernization, second edition, London: Bloomsbury Academic, 2012, P. 85.

(21) Glenny, Op.cit. P. 9.

(22) Ibid., P. 9.

(23) Ibid., P. 10.

(24) Meyer, Op.cit., P. 11.

(٢٥) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص ٦٠.

(26) Armour, Op.cit., P. 85; Glenny, Op.cit., P. 7.

(٢٧) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص ٥٩.

(28) Yilmaz, Op.cit., P. 4.

(29) Armour, Op.cit., P. 79.

(30) Meyer, Op.cit., P. 10.

(31) Suzanne M. Streeter, One Church, One People, One Emperor – Strategic Challenges for the Serbian Orthodox Church in Post-Milosevic Serbian Society, Unpublished thesis Submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master of Arts in National Security Affairs to the Naval Postgraduate School, Monterey, California, June 2006, P. 48.

(٣٢) إن محاولة الأسلمة الإجبارية الوحيدة التي قام بها العثمانيون هي ضريبة الدم "Blood Tax" أو ضريبة الغلمان، الضريبة الدورية على الأطفال الأصحاء، للالتحاق بالانكشارية، أو لخدمة الدولة بهيئة موظفين، أو الخدمة في القصور السلطانية، هذه الضريبة التي تطال ما يقرب من خمس ذكور سكان البلقان كل أربعة إلى سبعة أعوام ولم يستثن من هذه الضريبة إلا اليهود والأرمن. ينظر: عبد العزيز الشناوي، المصدر السابق، ص٥٣٣-٥٣٦.

(33) Dvornik, op. cit., p. 355.

(34) S. Pribichevich, Macedonia its People and History, The Pennsylvania State University Press, 1982, pp. 99-100.

(٣٥) محمد صالح البوسنوي الخانجي، المختار من الجوهر الاسنى في تراجم علماء وشعراء البوسنة، ص ٢٥-٢٦، نقلا عن عبد الحي الفرماوي، الصربيون خنازير أوروبا يحاولون إبادة الوجود الإسلامي في البلقان، ص ٣٥.

لم يبق فيها حالياً من كل ما ذكر إلا مسجداً واحداً، يصلي فيه عدد قليل من التجار المسلمين أو مسافريهم. ويبدو أنه حصلت هناك في صربيا حركة تنصير مضادة للإسلام نظراً لاستقلال صربيا شبه الرسمي المبكر حسب مقررات مؤتمر برلين ١٨٧٨، وهذا الأمر يشبه ما حصل في الأندلس بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢ فلم يبق ذكر للإسلام نتيجة لجهود محاكم التفتيش.

(36) James D. Bourchier, The Balkan States – Their Attitude Towards The Macedonian Question, in: Luigi Villari (ed.), The Balkan Question, the present condition of the Balkans and of European responsibilities, New York: E. P. Dutton and Company, 1905, p.45.
(37) Bourchier, op. cit., p. 46.
(38) Armour, Op.cit., P. 79.
(39) Meyer, Op.cit., P. 9.
(40) Armour, Op.cit., P. 85.
(41) Streeter, Op. cit., P. 48.
(42) Meyer, Op.cit., P. 9.
(43) Barbara Jelavich, History of the Balkans Eighteen and Nineteen Centuries, Vol. 1, Cambridge University Press, 1983, P. 174; Armour, Op.cit., P. 38.
(44) Charles and Barbara Jelavich, The Establishment of the Balkan National States 1804-1920, A History of East Central Europe Vol. VIII, 4th printing, United States of America, 2000, P. 26; Ian Armour, Op.cit., P. 85.
(45) Dusan T. Batakovic, French Influence in Serbia 1835-1914 Four Generations of Parisians, Institute for Balkan Studies Serbian Academy of Sciences and Arts Belgrade, DOI: 10.2298/BALC1041093B, Original scholarly work, P. 120
(46) R. W. Seton-Watson, The Rise of Nationality in the Balkans, New York: E. P. Dutton and Company, 1918, P. 38.
(47) Glenny, Op. cit., P. 10.
(48) Ibid., PP. 10-11.
(49) Ibid., P. 11.
(50) Meyer, Op.cit., P. 10; Seton Watson, Op.cit., P. 38.
(51) See: Marriott, Op.cit., PP. 178-179.
(52) Meyer, Op.cit., P. 11.
في الحقيقة كان عصب المملكة يقع بعيداً إلى الجنوب من بلغراد في منطقة كوسوفو وسكوبيه.
(53) Robert G.D. Laffan, The Guardians of the Gate: Historical Lectures on the Serbs, Oxford: At the Clarendon Press, 1918, P. 23.
(54) Meyer, Op.cit., P. 11.
(٥٥) كثيرا ما قدمت كوسوفو بوليي على أنها نهاية الإمبراطورية الصربية في القرون الوسطى، التي دافع جيشها ببطولة عن العالم المسيحي حتى أبيد عن آخره. في الواقع، تشرذمت السلطة الصربية وانهارت تدريجياً على مدى السبعين سنة اللاحقة. ولم تقع قلعة بلغراد تحت السيطرة العثمانية حتى عام ١٥٢١. Laffan, Op.cit., P. 21.
(56) Meyer, Op.cit., P. 11.
(57) Glenny, Op. cit., P. 11.
(58) Seton Watson, Op.cit., P. 38.
(59) Barbara Jelavich, Op.cit., P. 175.
(60) Batakovic, Op.cit., P. 113.
(61) Laffan, Op.cit., P. 25.
(62) Yilmaz, Op.cit., P. 3.
(٦٣) نهر السافا: بالصربية والكرواتية والبوسنية والسلوفينية Sava: هو نهر يخترق كلا من سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة وصربيا، يعد أحد روافد الدانوب حيث يصب فيه عند العاصمة الصربية بلغراد، يبلغ طوله ٩٤٠ كم ومساحة مسطحه المائي حوالي ٩٥.٧٢٠ كم، كان يطلق عليه مسمى سافوس في العهد الروماني.
(٦٤) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص ٦٤.
(65) Yilmaz, Op.cit., P. 3.
(66) Ibid.
(67) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 26.
(68) Batakovic, Op.cit., P. 113.
(69) R.W. Seton Watson, The Southern Slav Question And the Habsburg Monarchy,

London: Constable& Co Ltd., 1911, P. 43.
(70) Laffan, Op.cit., P. 27.
(71) Yilmaz, Op.cit., P. 3.
(72) Seton Watson, Southern Slav, PP. 44-45.
(73) Seton-Watson, Rise of Nationality, P. 37.
(٧٤) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص٦٠.
(75) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 27.
(76) Meyer, Op.cit., P. 13.
(77) Marriott, Op.cit., P. 180.
(78) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 27; Armour, Op.cit., P. 85.
(79) Marriott., Op.cit., P. 179.
(80) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 27.
(81) Seton Watson, Southern Slav, P. 45.
(82) Glenny, Op.cit., P. 7.
(83) Meyer, Op.cit., P. 11.
(84) Laffan, Op.cit., P. 27.
ينظر ص ٢١ من البحث
(85) Laffan, Op.cit., P. 27.
(86) Barbara Jelavich, History of the Balkans, P. 195.
(87) Meyer, Op.cit., P. 12.
(88) Armour, Op.cit., P. 80.
(٨٩) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص ٦٠.
(90) Yilmaz, Op.cit., P. 4.
(91) Glenny, Op.cit., P. 3.
(92) Marriott, Op.cit., P. 178.
(٩٣) السلطانة ميري شاه Mihrişah (١٧٤٥-١٨٠٥): كانت إحدى زوجات السلطان مصطفى الثالث، ووالدة السلطان سليم الثالث والوصية العملية على العرش (باعتبارها والدة السلطان Valide Sultan). كانت ابنة لقس ارثذوكسي جورجي، وكانت جميلة حتى عرفت باسم الجمال الجورجي، أما اسمها ميري شاه فهو لقب يعني "شمس الملك". عرفت بدعمها اللامحدود للإصلاحات التي سادت عهد ولدها السلطان، وكانت منهمكة بصورة رئيسة في إصلاح المدارس العسكرية وإنشاء البعثات الدبلوماسية. وكثيرا ما توسطت لدى ولدها السلطان لغرض إصدار العفو عن المحكومين. وقامت ميري شاه بتأسيس العديد من المدارس العامة والمساجد في العقد الأخير من القرن الثامن عشر، وقامت في ١٧٩٥ بتأسيس مدرسة وكلية ميري شاه والدة السلطان (Mihrişah Valide Sultan School and Külliye) في منطقة ايوب Eyüp في اسطنبول. وما زالت التكية والمطبخ الخيري الذي أنشأته يعمل إلى يومنا هذا. وكانت ميري شاه وابنها سليم الثالث أعضاء في طريقة الدراويش الصوفية المولوية. https://en.wikipedia.org/wiki
(94) Gleeny, Op.cit., P. 4.
(95) Armour, Op.cit., P. 88.
(96) S.P.H. Duggan, The Eastern Question a study in diplomacy, New York: The Colombia University Press, 1902, P. 51.
(٩٧) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص ٦٠.
(98) Duggan, Op.cit., P. 52.
(99) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 27.
(100) See: Marriott, Op.cit., P. 178.
(101) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 27.
(102) Barbara Jelavich, Op.cit., P. 195.
(١٠٣) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص ٦١.
(104) Yilmaz, Op.cit., P. 5.
(105) Martha, Op.cit., P. 13.

(106) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 28; Marriott., Op. cit., P. 180.
(107) Gleeny, Op.cit., P. 4.
(108) See: Duggan, Op.cit., P. 52-53.
(109) Glenny, Op. cit., P. 4.
(110) Marriott, Op.cit., P. 178.
(111) Glenny, Op.cit., P. 5.
(112) Armour, Op.cit., P. 87.
(113) Wikipedia the Free Encyclopedia.
(114) Misha Glenny, Op.cit., P. 5.
(115) Marriott., Op.cit., P. 180; Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 28.
(116) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 28.
(117) Yilmaz, Op.cit., P. 5.
(118) Glenny, Op.cit., P. 5.
(119) Barbara Jelavich, Op.cit., P. 195-196.
(120) Wikipedia the Free Encyclopedia.
(121) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 28.
(122) Glenny, Op.cit., P. 5.
(123) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 28.
(124) Duggan, Op.cit., P. 53.
(125) Glenny, Op.cit., PP. 3-6.
(126) Yilmaz, Op.cit., P. 6.
(127) Glenny, Op.cit., PP. 3-6.
(128) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 28.
(129) Yilmaz, Op.cit., P. 6.
(130) Barbara Jelavich, Op.cit., P. 196.
(131) Yilmaz, Op.cit., P. 6.
(132) Armour, Op.cit., PP. 41-44, 59.
(133) Quoted in Laffan, Op.cit., P. 29.
(134) Batakovic, Op.cit., PP. 113-114.
(135) Seton Watson, The Southern Slav, P. 45; Armour, Op.cit., P. 55.
(136) Batakovic, Op.cit., PP. 113-114.
(137) Armour, Op.cit., P. 59.
(138) Batakovic, Op.cit., P. 120.
(139) Armour, Op.cit., P. 59; Barbara Jelavich, Op.cit., P. 177; Laffan, Op.cit., PP. 28-29.
(140) Batakovic, Op.cit., P. 117.
(141) Armour, Op.cit., P. 57.
(142) Batakovic, Op. cit., P. 118.
(143) Ibid., P. 120.

أصدر الكونت سافا تيكيليا، السابق الذكر، في فيينا عام ١٨٠٤ طبعة من ٢٠٠٠ نسخة عن الخريطة الجغرافية لصربيا الكبرى تغطي كلا من باشوية صربيا، والبوسنة، ودوبروفنيك، والجبل الأسود، وذلك من أجل تحديد المطالب القومية المحتملة للصرب. كما طبعت صورة لإمبراطور القرون الوسطى الصربي ستيفان دوشان، في مكان ما في المجر، ووزعت في جميع أنحاء صربيا، وجنوب المجر والحدود العسكرية النمساوية.

(144) Batakovic, Op.cit., P. 117.
(145) Ibid., P. 122.
(146) Quoted in Laffan, Op.cit., P. 29.
(147) Seton Watson, Rise of Nationality, P. 37.
(148) Batakovic, Op.cit., P. 122.
(149) Ibid., P. 123.

لطالما راقبت السلطات النمساوية بحذر كل ما يجري على الأراضي الصربية المتاخمة للنمسا، فقد كان لابد للاضطرابات التي تحدث في هذا الإقليم، إثارة قلق حكومة فيينا لاعتبارات عديدة، منها إنها كانت تهدد

تجارتها مع صربيا والأقاليم العثمانية الأخرى المتاخمة لها، وتتطلب جهوداً إضافية لمراقبة الحدود وضمان عدم اختراقها، فضلاً عن الخطر الذي تشكله على سلطة أسرة آل هابسبورغ بتأثيرها الثوري على الرعايا السلاف في الدولة النمساوية، والتأزم الذي يمكن أن تحدثه في العلاقات النمساوية العثمانية، في وقت كان فيه الوضع الدولي غير ملائم للنمسا بسبب الثورة الفرنسية والهزائم المتكررة التي لحقت بها على يد الجيوش الفرنسية. فضلا عن النمسا قد التزمت للاعتبارين الأولين بعد معاهدات السلام مع الدولة العثمانية بنظام الحياد الصارم، ولم تتوان بإعلان حيادها تجاه أي تحرك يقوم به رعايا الدولة العثمانية من السلاف وتعده حدث داخلي يهم الدولة العثمانية وحدها. ينظر: هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص ٦٤-٦٥.

(150) Marriott, Op.cit., P. 179.
(151) Glenny, Op.cit., P. 2.
(152) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 29.
(١٥٣) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص ٦٢.
(154) M.S. Anderson, The Eastern Question 1774-1923, A Study in International Relations, St. Martin's Press, New York, 1966, P. 48.
(155) Yilmaz, Op.cit., P. 6.
(156) Glenny, Op. cit., P. 8.
(157) Meyer, Op.cit., P. 12.
(158) Glenny, Op.cit., P. 1.
(159) Yilmaz, Op.cit., P. 6.
(160) Glenny, Op.cit., P. 9.
(161) Ibid., P. 8.
(162) Barbara Jelavich, Op.cit., P. 196.
(163) Quoted in Glenny, Op.cit., P. 2.
(164) Quoted in Laffan, Op.cit., P. 30.
(165) Glenny, Op.cit., P. 2.
(166) Laffan, Op.cit., P. 31.
(167) Glenny, Op.cit., P. 2.
(١٦٨) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ص ٦٥.
(١٦٩) سلاف Slave بالإنكليزية تعني الرقيق، العبد، الأمة، الجارية؛ ضد حر. وبالفرنسية Esclave تعني العبد، ينظر قاموس المنهل، بيروت: دار الآداب. وبالعربية صقالبة من الكلمة الاسبانية Esclavo كان يطلق أول الأمر على الرقيق والأسرى الذين يقبض عليهم من الجرمان، وغيرهم من القبائل السلافية، ثم أصبح هذا الاسم يطلق فيما بعد على كل الأجانب الذين يباعون، وفيهم الرقيق الاسباني، ومن على شاكلتهم. ينظر: الأرقم الزعي، قضية البوسنة والهرسك: دراسة تاريخية وإنسانية، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٣، ص ١٤.
(170) Pribichevich, p. cit., p. 66.
(171) Anderson, Op.cit., P. 48.
(172) Yilmaz, Op.cit., P. 6.
(173) Gleeny, Op.cit., P. 8.
(174) Seton Watson, Rise of Nationality, Op.cit., P. 38.
(175) Glenny, Op.cit., P. 8.
(176) Charles and Barbara Jelavich, Op.cit., P. 29.